الجمهورية الجزائرية الديموقراطية الشعبية

République Algérien Démocratique et Populaire

زارة التعليم العالي والبحث العلمي جامعة

أكي محند اولحاج

-البويرة-

كية العلوم الاجتماعية والانسانية

قسم: الفلسفة

Ministère de l'enseignement supérieur et de la recherche scientifique

Université Akli Mohand Oulhadj – Bouira

Faculté des sciences sociales et humaines

دور الأشكال الرمزية في تشكيل الوعي والمعرفة: قراءة تحليلية لفلسفة إرنست كاسيرر

مذكرة مقدمة لنيل شهادة الماستر في الفلسفة

اعداد الطالبة

متيجي سامية

اشراف الأستاذ

د. نابت عبد النور

السنة الجامعية 2025/2024

Detectia Université BOUIRA

ID: qěvllj-192842

Certificat d'analyse de la similarité textuelle

- Nom du document: متيحي سامية فلسفة الأشكال الرمزية عند ارنست كاسيرر.pdf
- Soumis par: **BANOUNE Hadda** **Enseignant**
- Date de soumission: **2025-06-03**

0.9%	**9**	**12**
Taux global de similarité	**Nombre de sources**	**Passages surlignés**
0.9% Similarité Forte	**8** sources internet	**25688** mots
0.0% Exclu manuellement	**1** sources Thèses-Algérie	**159711** caractères
	0 sources dépôt privé	**25.4%** de citations

Ce document est un certificat et resumé d'analyse et de detection de similarité textuelle qui peut être utilisé pour l'établissement d'un rapport de plagiat. Il revient à l'examinateur, l'encadrant ou bien au comité déontologique de l'université ou de l'école d'émettre un avis quant au statut de plagiat du document analysé.

Consultez **l'arrêté N° 1082 du 27 Décembre 2020 fixant les règles relatives à la prévention et la lutte contre le plagiat** pour en savoir plus concernant ce qui est considéré comme étant un acte de plagiat, les procédures ainsi que les sanctions.

Signature d'intégrité

Cachet et Signature

رئيس قسم الفلسفة بالنيابة

الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية
République Algérienne Démocratique et Populaire

وزارة التعليم العالي والبحث العلمي
جامعة أكلي محند أولحاج
- البويرة -
كلية العلوم الاجتماعية والإنسانية

Ministère de l'Enseignement Supérieur
et de la Recherche Scientifique
Université Akli Mohand Oulhadj - Bouira -
Tasdawit Akli Muhend Ulhag - Tubirett -
Faculté des Sciences Sociales et Humaines

قسم الفلسفة

إذن بإيداع مذكرة التخرج بعد التصحيح

نحن الأساتذة أعضاء اللجنة المناقشة عن المذكرة

الأستاذ(ة) المشرف(ة): نابتي عبد النور

الأستاذ(ة) المناقش(ة): بابو رابح

الأستاذ(ة) الرئيس(ة): جابر كمال

نأذن بإيداع مذكرة التخرج لنيل شهادة الماستر بعد تصحيحها

بعنوان: دور الأشكال الرمزية في تشكيل الوعي والمعرفة قراءة تحليلية في فلسفة كاسيرر

و التي أعدها الطالب(ة): مبيرجي ساسية

و الطالب(ة): /

المسجل بكلية العلوم الاجتماعية و الإنسانية ،ميدان: العلوم الاجتماعية

تخصص: الفلسفة العامة

الموسم الجامعي: 2025/2024

إمضاء المشرف(ة):　　　إمضاء المناقش(ة):　　　إمضاء رئيس(ة) اللجنة:

البويرة في: 2024/07/02

بسم الله الرحمان الرحيم

الشكر والتقدير

قال الله تعالى: " ولئن شكرتم لأزيدنكم "

الحمد لله تعالى على نعمه وحسن عونه والصلاة والسلام على هادي الأمة وكاشف الغمة صلى الله عليه وسلم. أشكر الله العزيز القدير على إتمام هذا العمل الفكري، وأسأله مثلما جمعنا في دنيا فانية أن يجمعنا في جنة عالية، وان يكتب لنا في هذه الخطوة سعادة ورزق زيادة.

¤ كما يسعدني أن أقدم خالص امتناني للأستاذ المشرف - **نابت عبد النور**- الذي امتلك الناس بأخلاقه، على قبوله الإشراف على هذا العمل وتقديمه لنا النصائح والتوجيه.

¤ وفائق التقدير إلى أعضاء لجنة المناقشة على تقبلهم قراءة هذه المذكرة وتفضلهم والمناقشة

¤ وإنه لمن دواعي سروري أن أغتنم الفرصة وأتقدم بخالص الاحترام وأعترف بجميل جميع أساتذة قسم الفلسفة بجامعة البويرة "أكلي محند أولحاج"، دون استثناء.

¤ وإلى كل أساتذتنا الأفاضل في كل الأطوار التعليمية، إلى غاية طور التعليم العالي لما قدموه لنا من علم وتوجيهات ساهمت في بناء ذاتنا العلمية.

¤ وإلى كل من ساهم في إنجاز هذا العمل سواء من قريب أو من بعيد فلهم جميعا كل الشكر والامتنان ¤ والشكر لكل أهل العلم.

متيجي سامية

الإهداء

أهدي عملي المتواضع هذا

إلى روح من أحضروني إلى هذا الوجود والدي حفضهما الله إلى إخوتي

مسند ظهري حقق الله أمانيهم

إلى أخي حبيبي ونبض فؤادي "توفيق" رحمه الله إلى كل البراعم

الصغيرة في العائلة

إلى كل من حاول عرقلتي لأنه زادني إصرارا إلى كل من

علمني ولو حرفا واحدا

متيجي سامية

قائمة المحتويات

مقدمة

الفصل الاول: الإطار النظري لفلسفة الأشكال الرمزية

المبحث الأول: مفهوم الأشكال الرمزية

مطلب 1: تعريف وتأسيس مفهوم الأشكال الرمزية عند إرنست كاسيرر

مطلب 2: دور الأشكال الرمزية في تشكيل الوعي والمعرفة الإنسانية

مطلب 3: التصنيف الأساسي للأشكال الرمزية اللغة الفن والدين

المبحث الثاني: اسس فلسفة كاسيرر

مطلب 1: العلاقة بين الفكر والرمز

مطلب 2: الأشكال الرمزية كأداة لفهم العالم

مطلب 3: مقارنة بين كاسيرر وفلاسفة آخرين كانط هيدغر

الفصل الثاني: الأشكال الرمزية وصياغة التجربة الإنسانية – منظور كاسيريري

المبحث الأول: الأشكال الرمزية كأدوات توليد المعرفة

المطلب الأول: الرمزية في الحقلين العلمي والفلسفي المطلب الثاني: تعددية

الحقيقة الرمزية

المبحث الثاني: الديناميات الرمزية للثقافة الإنسانية

المطلب الأول: اللغة كأداة رمزية للتواصل والمعرفة

المطلب الثاني: الفن كتجسيد للحرية الرمزية المطلب الثالث: الدين

كنسق رمزي للمعنى المطلق

الفصل الثالث: نقد فلسفة الأشكال الرمزية وحدودها في تشكيل الوعي والمعرفة

المبحث الأول: حدود الفاعلية التفسيرية للأشكال الرمزية

المطلب الأول: القدرة التفسيرية للرموز؛ بين الشمولية والقطيعة المعرفية

المطلب الثاني: تحديات التعددية الثقافية والتعقيد التكنولوجي

المبحث الثاني: النقد الفلسفي والمعرفي؛ بين البنيوية وما بعد الحداثة

المطلب الأول: تفكيك الشمولية الرمزية

المطلب الثاني: محدودية الرموز في مواجهة العلوم والتقنية الحديثة

المبحث الثالث: نحو آفاق جديدة؛ إعادة بناء فلسفة الرموز وبدائلها

المطلب الأول: إمكانيات التطوير؛ التكامل مع النظريات المعاصرة

المطلب الثاني: البدائل الفلسفية؛ من التفسير إلى التفكيك والتجاوز

الخاتمة

قائمة المصادر والمراجع

مقدمة

مقدمة

تعتبر فلسفة الأشكال الرمزية لإرنست كاسيرر من أبرز المحاور الفكرية في الفلسفة المعاصرة، حيث تسلط الضوء على دور الرموز في تشكيل الوعي والمعرفة البشرية. لا يمكن للإنسان أن يفهم العالم فقط من خلال العقل المجرد أو التجربة الحسية المباشرة؛ بل يعتمد في بناء تصوراته عن الواقع على الأشكال الرمزية المختلفة مثل اللغة، الفن، الدين، والعلم. وفقًا لفلسفة كاسيرر، تعد هذه الرموز أدوات أساسية لتنظيم الفكر البشري وتمثيل العالم. ففي عالم مليء بالظواهر المتعددة والمعقدة، لا يمكن للعقل وحده أن يكوّن صورة شاملة أو تفسيرًا كافيًا لما يحيط به الإنسان. إن استخدام الأشكال الرمزية، التي تتخذ عدة أشكال من التعبير الثقافي، يتيح للإنسان بناء تصورات رمزية تساهم في فهمه للوجود وتنظيم معرفته بالعالم.

إن الفكر البشري لا يعمل فقط على تحليل الواقع الحسي بشكل مباشر، بل يمر عبر قنوات رمزية تمكّنه من التفاعل مع هذا الواقع. على سبيل المثال، لا تقتصر اللغة على نقل معاني دقيقة فحسب، بل إنها تؤطر فهمنا للأشياء والعلاقات بينهما. الفن، من جانبه، يقدم رؤية جمالية وفكرية للعالم، حيث يتجاوز الحدود المادية لتصوراتنا ويسمح لنا باستكشاف الأفكار والمشاعر التي لا يمكن التعبير عنها بالكلمات. الدين والعلم بدورهما يعكسان طرقًا متميزة في بناء المعرفة وفهم الإنسان للوجود، مع كل منهما مجموعة من الرموز الخاصة التي تمثل طرقًا مميزة لتفسير الواقع.

إن ما يميز فلسفة كاسيرر عن غيرها من الفلسفات هو أن الرموز بالنسبة له ليست مجرد وسائل للتواصل، بل هي اللبنات الأساسية التي تكوّن الوعي البشري. فالإنسان لا يمكنه فهم الواقع إلا عبر الأشكال الرمزية، التي تنظم ويؤطر بها المعرفة. إن هذه الرموز تمنح الحياة البشرية بعدًا ثقافيًا ومعرفيًا يجعلها قادرة على التفاعل مع العالم المعقد واللا محدود، ومن هنا تأتي أهمية دراسة فلسفة كاسيرر في عصرنا المعاصر. فالتحديات الحديثة التي يواجهها الإنسان، مثل التعددية الثقافية، التقدم العلمي والتكنولوجي، بالإضافة إلى العولمة، تفرض إعادة النظر في قدرة الأشكال الرمزية على مواكبة هذه التحولات الكبرى التي يشهدها المجتمع البشري.

يطرح هذا البحث تساءلا مفاده: هل تظل الأشكال الرمزية كما تصورها فلسفة كاسيرر أداة فعالة لفهم الإنسان لعالمه المتغير والمعقد في العصر الحالي؟ وهل يمكن للرموز، التي كانت في الماضي أداة لفهم العالم، أن تظل قابلة للتطبيق في تفسير الظواهر الإنسانية في ظل التحديات المعرفية والثقافية الحديثة؟ في هذا السياق، تتناثر الأسئلة حول مدى قدرة هذه الأشكال الرمزية على التفاعل مع قضايا العصر مثل التقدم العلمي السريع، التنوع الثقافي، وأزمة الهوية. كما أن العالم المعاصر يشهد تحولات سريعة تتطلب منا فحصًا نقديًا لفلسفة كاسيرر لنعرف ما إذا كانت هذه الرموز تظل قادرة على تفسير الواقع المعقد اليوم. هل ما زالت الأشكال الرمزية تشكل الوعي المعرفي كما كانت في السابق؟ وهل يمكننا الاعتماد عليها في بناء أنماط جديدة من المعرفة؟ هذه هي الأسئلة التي يسعى هذا البحث للإجابة عنها.

يهدف هذا البحث إلى استكشاف دور الأشكال الرمزية في تشكيل المعرفة الإنسانية وفقًا لفلسفة كاسيرر وتحليل قدرتها على تفسير الواقع في ظل التحديات الثقافية والعلمية المعاصرة. من خلال هذا البحث، سيتم تناول مفهوم الأشكال الرمزية في إطار فلسفة كاسيرر، وكيف يمكن للرموز أن تساهم في توليد المعرفة وتنظيمها. كما سيتم استكشاف مدى قدرة هذه الرموز على التفاعل مع التحولات الثقافية والعلمية الحديثة، وهل يمكنها مواكبة التطور الذي يشهده العالم المعاصر.

سيتناول البحث بعض الأسئلة الأساسية، مثل: ما هي الأشكال الرمزية الأساسية التي تشكل الوعي البشري وفقًا لكاسيرر؟ كيف تساهم هذه الرموز في توليد المعرفة وتفسير الواقع؟ هل الأشكال الرمزية قادرة على تفسير الظواهر الثقافية في ظل التحديات المعاصرة؟ وما هي حدود فاعليتها في مواجهة النقد الفلسفي والعلمي المعاصر؟ هذه الأسئلة تمثل جوهر البحث، الذي يسعى إلى تطوير فهم عميق لفلسفة كاسيرر في ظل واقع ثقافي وعلمي يتغير باستمرار.

يتألف البحث من ثلاثة فصول رئيسية. في الفصل الأول، سيتم تناول الإطار النظري لفلسفة الأشكال الرمزية عند كاسيرر، حيث سنبحث في المفهوم العام للأشكال الرمزية وأسس فلسفته، إضافة إلى العلاقة بين الفكر والرمز. كما سنتطرق إلى مقارنة أفكار كاسيرر مع بعض الفلاسفة الآخرين مثل كانط وهيدغر. في الفصل الثاني، سنبحث دور الأشكال الرمزية في صياغة التجربة الإنسانية من خلال منظور كاسيرر، مع التركيز على كيفية مساهمة الرموز في توليد المعرفة، بالإضافة إلى تحليل الأبعاد الثقافية للدين والفن واللغة. أما في الفصل الثالث، فسيتم تقديم نقد لفلسفة الأشكال الرمزية وحدود قدرتها على تفسير الواقع، مع مناقشة التحديات التي تواجهها في ضوء العلم والتكنولوجيا الحديثة.

في معالجة موضوع هذا البحث، تم الاعتماد على المنهج التحليلي النقدي، إذ تم التركيز على تحليل المفاهيم الأساسية التي تشكل جوهر فلسفة كاسيرر، وعلى رأسها مفهوم "الشكل الرمزي" وعلاقته بتكوين الوعي والمعرفة. وقد تم التعامل مع هذه المفاهيم من خلال تتبع تطورها داخل مشروع كاسيرر الفلسفي، مع العودة إلى الأصول التي تأثر بها، خاصة الفلسفة الكانطية، ثم التوسع في فهم السياق النظري الذي قدم فيه كاسيرر أفكاره. كما تم الاستعانة بالمقارنة الفلسفية بينه وبين فلاسفة آخرين، سواء من معاصريه أو من التيارات الفلسفية اللاحقة، مثل هيدغر، سوسير، ودريدا، وذلك بهدف وضع فلسفته في موقعها ضمن تطور الفكر الفلسفي الحديث. هذا المنهج لم يقتصر على التحليل فقط، بل شمل أيضًا قراءة نقدية لأطروحات كاسيرر، خصوصًا فيما يتعلق بقدرة الرموز على تفسير الواقع الإنساني المعقد، مع محاولة الوقوف عند حدود هذه الفلسفة وإمكانيات تطويرها في ضوء التحديات المعرفية والثقافية الراهنة.

يهدف هذا البحث إلى إثبات أن فلسفة الأشكال الرمزية لا تزال تمثل أداة قوية لفهم الوعي والمعرفة البشرية في عالمنا المعاصر، لكن مع الاعتراف بحدود هذه الأشكال الرمزية في مواجهة التحديات الثقافية والعلمية الحديثة. سيتم التركيز على التحديات المعرفية المرتبطة بالعولمة والتعددية الثقافية، مع التأكيد على ضرورة إعادة النظر في فلسفة كاسيرر لتواكب التغيرات المعرفية التي يشهدها العصر الحالي. في هذا السياق، سيتم أيضًا عرض إمكانيات التكامل بين الأشكال الرمزية والنظريات المعاصرة التي تتجاوز الشمولية الرمزية.

تعتبر الدراسات السابقة حجر الزاوية لفهم تطور فلسفة الأشكال الرمزية وتقديم سياق نقدي لفهمها في العصر المعاصر. من أبرز هذه الدراسات دراسة خالدي (2020) التي تركز على العلاقة بين اللغة والفن في فلسفة كاسيرر، حيث تظهر كيف يمكن للرموز الفنية واللغوية أن تشكل الوعي والمعرفة. ورغم أهميتها، إلا أنها تظل قاصرة عن التطرق للتحديات التي تطرحها التحولات المعرفية الحديثة. كما تناول فؤاد مخوخ (2017) فلسفة كاسيرر من منظور هيرمينوطيقي، مؤكدًا على أهمية الرموز في تفسير الثقافة، ولكنه يقتصر على تناول الرموز دون التأصيل لفاعليتها في مواجهتها للتحديات المعرفية المعاصرة. أيضًا، قام Luft (2005) بتقييم نقدي لفلسفة كاسيرر، مبرزًا العلاقة بين العقلانية والنسبية الثقافية، إلا أن الكتاب يفتقر إلى التعمق في التطبيقات المعاصرة لفلسفة كاسيرر في مواجهة التحديات الثقافية والعلمية الحديثة.

ومن خلال هذا التحليل، يظهر أن الدراسات السابقة قد قدمت إسهامات كبيرة في فهم فلسفة كاسيرر، لكنها تظل مقيدة بجوانب معينة دون التطرق الكامل إلى التحديات التي يواجهها فكره في سياق العالم المعاصر. لهذا، يسعى هذا البحث إلى

بناء أطروحة جديدة عبر توسيع نطاق التحليل والتركيز على كيفية تطور فلسفة الأشكال الرمزية لتواكب التغيرات المعرفية والثقافية في العصر الراهن.

أما بالنسبة للصعوبات فقد واجه هذا البحث العديد منها، أبرزها ندرة الدراسات العربية المتعمقة في فلسفة كاسيرر، مما جعل من الصعب العثور على مراجع أكاديمية محلية تسلط الضوء على جميع جوانب فلسفته. إضافة إلى ذلك، كانت بعض النصوص الأصلية للفيلسوف باللغة الألمانية صعبة الوصول، مما استلزم الاعتماد على ترجمات ومصادر أجنبية، والتي قد تفتقر إلى الدقة الكاملة في نقل أفكار كاسيرر. كما أن بعض المفاهيم الفلسفية المعقدة التي طرحها كاسيرر تتطلب وقتًا طويلًا للتحليل والفهم العميق، مما استدعى الرجوع إلى العديد من المصادر الأجنبية ذات الصلة. وقد كان من الصعب أيضًا توظيف هذه المفاهيم الفلسفية في سياق الثقافة المعاصرة، بسبب الفجوة بين الفلسفات التقليدية والتوجهات المعرفية الحديثة. ومن جهة أخرى، تمثل إحدى الصعوبات في ضيق الوقت بسبب التزاماتنا، وخاصة أثناء فترة التربص، التي أخذت منا وقتًا طويلًا. غير أن هذه الصعوبات لم تزدنا إلا عزماً وإصرارًا على إنجاز هذا الموضوع وفق المعايير المنهجية.

تكمن القيمة الأكاديمية لهذه المذكرة في سعيها إلى تسليط الضوء على أحد المشاريع الفلسفية العميقة التي ما تزال تحظى بقدر من التهميش في الدراسات العربية، وهي فلسفة الأشكال الرمزية عند إرنست كاسيرر. ومن خلال التركيز على العلاقة بين الرموز وتكوين الوعي والمعرفة، تفتح هذه الدراسة أفقًا جديدًا لفهم البنية الرمزية للفكر الإنساني، وتربط بين الإشكالات الفلسفية الكلاسيكية والمعاصرة، خاصة في ظل تعقيدات الواقع الثقافي والمعرفي الحديث. كما تساهم في تعزيز النقاش الفلسفي حول مكانة الإنسان ككائن رمزي، وتحاول من خلال القراءة التحليلية والنقدية أن تبرز حدود هذه الفلسفة وإمكانياتها في تقديم أدوات معرفية لفهم التجربة الإنسانية، وهو ما يمنح هذا العمل طابعًا علميًا وأكاديميًا يُمكن البناء عليه في أبحاث لاحقة في مجالات الفلسفة، الثقافة، والعلوم الإنسانية.

الفصل الأول

الإطار النظري لفلسفة الأشكال الرمزية

<u>الفصل الاول:</u> الإطار النظري لفلسفة الأشكال الرمزية

المبحث الأول: مفهوم الأشكال الرمزية

المبحث الثاني: اسس فلسفة كاسيرر

يُمثِّل الفصل الأول مدخ الً تحليليًّا لأسس فلسفة الأشكال الرمزية عند إرنست كاسيرر ، حيث يُسلط الضوء على المفاهيم المحورية التي تُش ِّكل نواة مشروعه الفلسفي، وعلقتّها بإشكالية العلقّة بين الفكر والواقع. و يُبرز تحوُّل النقد الفلسفي من التركيز على العقل المجرد إلى نقد الثقافة ذاتها، إذ يرى كاسيرر أن فهم البنى الثقافية يتطلَّب تفكيك الأنظمة الرمزية التي تُش ِّكلُها (Matherne, 2021, p. 115). فالثقافة، في تصوُّره، ليست نتا اجا ثانويًّا للعقل، بل هي مجالٌ تُنتج فيه الرموزُ شروطَ الوجود الإنساني. وهنا يتحوَّل السؤال الكلسَّيكي عن "الحقيقة" إلى سؤالٍ عن آليات إنتاج المعنى عبر السياقات الرمزية المُتعددة، مما يُؤ ِّسسُ لرؤيةٍ تكامليةٍ ترفض اختزالَ الإنسان في كونه "حيوانا عاق الً"، وتؤكد على طابعه الرمزي كفاعلٍ ثقافي .(Matherne,2021, p.116)

ينطلق هذا الفصل من فرضية مفادها أن الأشكال الرمزية ليست مجرد أدوات تعبيرية ثانوية، بل هي "شروط إبستمولوجية وأنثروبولوجية" تُحدد طبيعة الوجود الإنساني ذاته. فمن خللِها يُعيد كاسيرر صياغة السؤال الفلسفي التقليدي عن "ماهية الحقيقة" إلى سؤال عن "كيفية إنتاج المعنى" في سياقات ثقافية متعددة. إذ يؤكد أن "العقل الإنساني في حاجة إلى رموز" (كاسيرر،1961،ص.12).

يتناول المبحث الأول مفهوم الأشكال الرمزية ، بد اءا من تعريفها كأنظمة توليدية للدلالة، مرو ارا بجذورها الفلسفية التي تربطها بالتراث الكانطي والهيغلي، وصو الا إلى تطورها كإطارٍ لفهم الأزمة الإنسانية في القرن العشرين. هنا يبرز كاسيرر تمييز الإنسان عن الحيوان عبر الرمز، حيث "يستقل الإنسان بالرموز دون الحيوان" (كاسيرر،1961،ص.13).أما المبحث الثاني، فيناقش أسس فلسفة كاسيرر، عبر تحليل العلقّة الجدلية بين الفكر والرمز، ودور الأخير (الرمز) كوسيطٍ بين الذات والعالم، مع مقارنة نقدية تُظهر اختلفَه عن فلسَّفة مثل كانط وهيدغر.

يأتي هذا الفصل كاستجابة لإشكالية محورية: كيف تُعيد الأشكال الرمزية تشكيل الوعي والمعرفة الإنسانية؟ وهل تُقدم حلًّ لتجاوز الثنائيات الكلسَّيكية (كالفكر/الواقع، الذات/الموضوع)؟ للإجابة عن هذا، سيعتمد التحليل على ثلثَّة محاور:

1. **الطبيعة الوظيفية للرمز:** بوصفه أداةا لا تنقل الواقع بل تُنشئه، حيث "بالرمز يحرز الإنسان الكفة السحرية التي تفتح أمامه أبواب التقدم" (كاسيرر،1961،ص.13).
2. **التعددية الرمزية:** تفكيك فكرة المركزية العقلنَّية لصالح حوار الثقافات، إذ "تتضمن الوظيفة فعاليات متنوعة منها اللغة والأسطورة والدين والفن والعلم" (كاسيرر،1961،ص.14).
3. **الانزياح من الإبستمولوجيا إلى الأنثروبولوجيا :** تحويل الفلسفة من دراسة شروط المعرفة إلى دراسة شروط الوجود الإنساني، حيث "إن العقل الإنساني في حاجة إلى رموز" (كاسيرر،1961،ص.12).

هكذا، يهدف الفصل إلى تأسيس إطار نظري يُظهر أن الأشكال الرمزية ليست نظرية معرفة فحسب، بل مشرو اعا فلسفيًّا لإنقاذ الإنسانية من اغترابها الرمزي ، في عالمٍ تتصارع فيه أنظمة الدلالة وتتنازع الهويات.

المبحث الأول: مفهوم الأشكال الرمزية

تُمثِّل فلسفة إرنست كاسيرر حول "الأشكال الرمزية" إحدى المحاولات الجوهرية لإعادة تعريف طبيعة الوعي الإنساني وآليات تشكُّل المعرفة، انطلقًا من رؤيةٍ تُعيد تصوير العلقَة بين الذات والعالم. فالانسان، وفقاا لكاسيرر، ليس مجرد "حيوان

عاقل"، بل هو "حيوان ذو رموز" (كاسيرر،1961،ص.12).

،اذ تحدد الرموز طبيعة إدراكه وتفكيره. ينتمي كاسيرر إلى المدرسة الكانطية الجديدة (مدرسة ماربورغ)، لكنه تجاوز الإطار التقليدي للمثالية الكانطية بتوسيعه مفهوم "الصورة النمطية" (الكوجيتو) ليشمل أنساقاا رمزيةا متعددة تُش ِّكل أدواتٍ ضروريةا لفهم الواقع. فإذا كان كانط قد ركز على العقل الخالص كأساس للمعرفة، فإن كاسيرر يُؤسس لفلسفةٍ أكثر شمو الا، تُعَدُّ فيها الرموزُ ليست مجرد وسائط تعبيرية، بل أنظمةا توليديةا تُن ِّظم التجربة الإنسانية وتُعطيها معنى.

يُع ِّرف كاسيرر "الأشكال الرمزية" باعتبارها الأنماط الثقافية والذهنية التي من خللِها يبني الإنسانُ عالمَه، كاللغة والفن والدين والعلم. فهي ليست انعكاساتٍ سلبيةا للواقع، بل فاعلياتٍ إبداعية تُح ِوّل البيانات الحسية إلى عوالم رمزية قابلةٍ للتأويل،

مثل اللغة والفن والدين والعلم، والتي "ترتبط برابطة الوظيفة وتسعى إلى غاية واحدة" (كاسيرر ،1961،ص.16). ومن هنا، تُصبح هذه الأشكالُ أسا اسا لفهم الوعي الإنساني، إذ لا يُدرك الإنسانُ الواقعَ مباشرةا، بل عبر شبكةٍ من الرموز التي تُحدِّد طبيعة إدراكه وتفكيره.

يستند هذا الطرح إلى فكرةٍ مركزيةٍ مفادها أن الرمزيةَ هي السمة المميزة للإنسان كـ"حيوان رمزي" (Animal Symbolicum)،حيث أننا " لا نستطيع أن نفكر دون صور ولا نحدس دون فكر" (كاسيرر،1961،ص.12).ووفقاا لتعبير كاسيرر. بد الا من الانحصار في ثنائية الفكر والواقع، تُقدِّم الأشكالُ الرمزيةُ حَلًّ ديالكتيكيًّا يُظهر كيف أن المعرفةَ نتاجٌ لتفاعلٍ

ديناميكي بين الذات والموضوع، عبر وساطة الرموز. وهذا التفاعل لا يقتصر على الجانب المعرفي فحسب، بل يشمل الأبعاد الجمالية والأخلقَّية والدينية، مما يُوسع دائرة الفلسفة لتشمل التجربة الإنسانية بكليتها.). وهكذا، تُصبح الفلسفة مهمةا في

"استكشاف وحدة العمل في ذلك التنوع المتكثر في الصور الأسطورية والأديان واللغات والفنون والعلوم" (كاسيرر ،1961،ص.14).

بهذا، يُعيد كاسيرر طرحَ الإشكالية الكلسيكية حول علقَة الفكر بالواقع، مُحَ ِوّ الا إياها من سؤالٍ عن "مطابقة التمثيلتَ للواقع"

إلى سؤالٍ عن "كيفية تشكُّل الواقع نفسه عبر الممارسات الرمزية". وهذا التح ِول يُش ِّكل إسها اما جوهريًّا في تجاوز الثنائيات التقليدية، كالذات/الموضوع أو العقل/المادة، لصالح رؤيةٍ تكاملية تُبرز دور الثقافة والرمز في صياغة الوجود الإنساني.

المطلب الأول: تعريف وتأسيس مفهوم الأشكال الرمزية عند إرنست كاسيرر

يُعتبر مفهوم "الأشكال الرمزية" (Symbolic Forms) حجر الزاوية في فلسفة إرنست كاسيرر (1874–1945)، حيث عرفها باعتبارها شبكة معقدة من الأشكال و الصور التي تعبر عن مشاعر الإنسان وأهوائه وانفعالاته وآماله ومعتقداته (عبد الهادي، 2023،ص. 905) فهذا المفهوم يشكل إطا ارا منهجيا لفهم آليات تشكيل الوعي والمعرفة البشرية. انطلق كاسيرر من فكرة نقد الفلسفات التقليدية التي حاولت اختزال العلقَة بين الإنسان والعالم في ثنائيات جامدة وصلبة ،مثل "الذات/الموضوع"(Self/Other) أو "الفكر/الواقع"أ(Mind/Body)، مُقدِّ اما نسخة بديلة فلسفياة ترتكز على فكرة أن

الإنسان لا يدرك الواقع بشكلٍ مُباشر، بل من خللَ وسائط رمزية تُمثِّل أنظمةا ثقافية وحضارية متعددة.فإذا كانت الفلسفات التقليدية قد ركَّزت على العقل كأداةٍ وحيدةٍ لف ِّك شفرة الواقع، فإن كاسيرر يُح ِوّلُ الانتباهَ إلى الرموز كأنظمةٍ توليديةٍ تُنتجُ عوالمَ ثقافيةا متمايزة (Matherne, 2021, p. 115). فـ"الشكل الرمزي" ليس مجرد وسيطٍ تعبيري، بل هو نظامٌ ديناميكي يُعيد

تنظيمَ التجربة الإنسانية، ويُح وّلها من مادةٍ حسيةٍ خام إلى نسيجٍ من الدلالات. وهكذا، يُصبحُ الرمزُ شر اطا أنطولوجيًّا لوجود الإنسان، وليس مجرد أداةٍ إبستمولوجية. إذن فلنحد الإنسان بانه حيوان ذو رموز بدلا من أن نحده بالعقل والمنطق (كاسيرر، 1961،ص.69).

في هذا السياق، ينتقد كاسيرر التصوُّرَ الأرسطي للإنسان كـ"حيوان عاقل"، مُقدِّ اما بدي لًا يُع ِّرفُ الإنسانَ بوصفه "حيوانا رمزيًّا" (Animal Symbolicum)، قاد ارا على بناء عوالمه الثقافية عبر أنظمةٍ رمزيةٍ متشابكة (Matherne, 2021, p. 116). فالقدرة على خلق الرموز وتداولها هي ما يميِّزُ الوجودَ الإنساني، إذ تسمح له بتجاوز الحدود البيولوجية، وخلقَ مساحاتٍ من الحرية تُعيدُ تشكيلَ الواقع (Matherne, 2021, p. 117).

أولا: التأسيس الفلسفي للمفهوم

وضع كاسيرر مفهوم "الأشكال الرمزية" في سياق مشروعه النقدي لتجاوز قيود المثالية الكانطية، طبعا مع الحفاظ على روحها النقدية. فإذا كان إيمانويل كانط قد ركَّز على "المقولات العقلية" كشروط و أسس لإمكانية حدوث المعرفة العلمية، فإن كاسيرر بدوره وسَّع ذلك لتشمل هذه الفكرة جميع أنماط التعبير البشري، مثل اللغة، والاسطورة/الدين، والفن، والعلم. ومنه ،ف"الشكل الرمزي" لكاسيرر ليس مجرد أداة تمثيلية بسيطة ، بل "نظام ديناميكي" يُم ِّكن البشر من تنظيم وترتيب التجربة الحسية وتحويلها إلى عالمٍ مَفهومي /معنوي مُشترك ، ويضيف كاسيرر لنا أيضا أن "الرمز ببساطة يعني تعبيراا يشير إلى أكثر مما يقال"(عبد الهادي،2023،ص.15) . ، مما يسلط الضوء و يبرز قدرة و إمكانية الرموز على إيصال معان ودلالات تتجاوز الكلمات بحد ذاتها . فهي تتيح للبشر تجاوز الإدراك الحسي المباشر إلى أعمق المستويات من الفهم والتفسير

والتحليل . وتتميز الأشكال الرمزية بقدرتها على الربط و الدمج بين الجانب الذاتي للفرد وبين النظام الثقافي المشترك الذي يساهم في تشكيل الهوية الإنسانية /البشرية و المعرفية. وبالتالي ، تصبح الرموز أدوات حيوية لتمكين الإنسان من بناء المعرفة وتنظيم علَقته بالواقع. وفي هذا السياق ، يمكننا القول إن الرموز ليست وكيلً لكائناتها ولكنها مركبات لتصور الأشياء (عبد الهادي،2023،ص .17) ، فهي لا تعكس الواقع كما هو ، بل تعبر عن كيفية تصور الإنسان له ، مما يعزز من دورها في تشكيل الوعي والمعرفة ، لأنها في نظر كاسيرر: تعاني نق اصا ما، ففي الشكل الذي تظهر فيه أو الا، يبدو أنها لا تمثل سوى وساطة خارجية(مخوخ،2017، ص.238).وبذلك، تتحول الرموز من مجرد وسائط سلبية إلى فواعل نشطة في تشكيل الواقع المُدرَك.

ثانيا: الرمز كوسيط بين الفكر و الواقع

كما يرى كاسيرر وفقا لكولر أن ازدواجية العلقَة بين الفكر والواقع ليست علقَة انعكاسية بتاتا ، حيث يعيد العقل إنتاج العالم الحقيقي كما هو، (يعكس الفكر الواقعَ كما هو)، بل علقَة توليدية ، أو علقَة نشوء تَصنع وتبني فيها الرموزُ عالَ اما مخصو اصا من الدلالات . فـ"الرمز" ليس مجرد إشارة إلى شيء خارجي، بل أداة "خلق إبداعي نشطة" تعيد بناء الخبرة (التجربة) الإنسانية من خللً أنظمة رمزية متنوعة و متمايزة. فالرمز يعد من أهم موضوعات الفلسفة ويشكل رؤية شاملة للواقع الكلي (بوادقجي، بدوي، الداية، 2020، ص. 4)على سبيل المثال، لا تتوقف اللغة عند استخدام التسميات لتحديد الأشياء، بل أيضا تُحدد كيف ينبغي تصور الكائن و التفكير فيه ، فالكلمات ليست حاويات للمعنى أو ما شابه ذلك ، بل هي قوالب يش ِّكل من خللًها فهمنا للواقع و إدراكنا التام لهذا العالم .

هنا يتجلى التمايز الكاسيرري عن التصورات التقليدية؛ فالكلمة لا تُختزل إلى دلالة خارجية، بل تُش ِّكل جز اءا من النسق الوجودي ذاته. يقول كاسيرر: "اللغة والوجود، والكلمة والمعنى بالنسبة له ليست منفصلة عن بعضها البعض، بل على العكس

من ذلك تبدو له كوحدة لا تنفصل" (Cassirer, 1819,p.61). هذه الوحدة تُبرز كيف أن اللغة لا تُعبّر عن الواقع فحسب، بل تشارك في تشكيله، مما يجعلها شر اطا أنطولوجيًا لإدراك العالم.

ثالثا: الأسس الأنثروبولوجية

يرتكز الأساس الأنثروبولوجي لكاسيرر على افتراض غير تقليدي إلى حد كبير: فالبشر ليسوا مجرد كائنات عاقلة أو مستخدمي أدوات، بل هم حيوانات رمزية (Animal Symbolicum)حيث قال :»الإنسان حيوان ذو رموز«(كاسيرر،1961، ص .70). هذه ليست مجرد مناورة لغوية، بل هي إعادة تصور جذرية لما يعنيه أن نكون بشراا. فقد جادل كاسيرر بأن التعريفات التقليدية أخطأت الهدف، لأنها أغفلت السمة الحقيقية التي تميز نوعنا البشري ..قدرتنا على ابتكار الرموز واستخدامها.

وبناء على هذا التصور ، فالرمزيةُ لا تنفصل عن البُعد الأنثروبولوجي للإنسان، فكاسيرر يرفضُ اختزالَ الثقافة في نتاجٍ ثانوي للعقل، ويُؤكد أنها تُعبّر عن سيرورةٍ تاريخيةٍ تهدف إلى التحرر الإنساني. فالفلسفة هنا لا تُقدّمُ تحلي الً للمعارف فحسب،بل تسردُ مسيرةَ الثقافة نحو تحقيق الذات عبر تفاعلها مع الرموز (Matherne, 2021, p. 117). ومن هذا المنظور، تُصبحُ الأنظمةُ الرمزيةُ (كاللغة، الأسطورة، الدين، الفن، والعلم) أدواتٍ لاستكشاف الذات والعالم، بد الا من أن تكون قيودا تُحدّدُها. ومن هذا المنطلق ، تُش كل اللغةُ الوعيَ الإنساني من خلاَ بنيتها الرمزية، حيث تُعتبر "افترا اضا وشر اطا للتأمل الفلسفي"(Cassirer,1819 , p.61)، فالتأمل لا ينفصل عن اللغة، بل ينهض من خلالّها، مما يجعلها أداةا لا غنى عنها لتنظيم التجربة.

كما أن الغموض في اللغة ليس نق اصا، بل "لحظة أساسية وإيجابية من قوة التعبير" (لتعددية الدلالات وإثراء Cassirer,1819,p.65)، إذ يفتح الباب الفكر.

وهكذا، يمكن التفكير في الأمر بهذه الطريقة: اللغة نفسها نظام رمزي، نسيج معقد من الأصوات والإيماءات الاعتباطية التي تنقل المعنى بطريقة سحرية. من دون هذه القدرة، سينهار النسيج الثقافي الغني الذي يميزنا، مما سيتركنا... شيئاا أقل من بشر. ولهذا السبب ، هذا لا يعني أن العقل أو استخدام الأدوات غير مهمين – بل على العكس تما اما. لكن بالنسبة لكاسيرر، القدرة على التعامل مع الرموز ليست مجرد نتيجة للذكاء البشري، بل هي الشرط الجوهري، الجوهر الحقيقي لوجودنا. إنها الأساس الذي تُبنى عليه الثقافة، والهياكل التي تدعم مجتمعاتنا المعقدة ومساعينا الفكرية. فالأنماط الرمزية، في نظره، ليست مجرد زخارف ثقافية، بل هي شريان الحياة للثقافة نفسها، والغراء غير المرئي الذي يربط مجتمعاتنا، والمهندس الخفي لواقعنا المشترك.

من دون القدرة على التفكير الرمزي، سيكون تنوع التجربة البشرية وغناها أم ارا غير متصور تما اما – مجرد ظل باهت لما هو عليه بالفعل. تخيل عالماا بلّ فن، بلّ موسيقى، بلّ لغة، أو حتى بلّ المفاهيم المجردة التي تشكل أساس العلم – أليس ذلك مشهداا كئيباا وفقي اراا؟ إن رؤية كاسيرر، إذن، ليست مجرد مسألة أكاديمية، بل هي تأمل عميق في طبيعة الوجود البشري ذاته. إنها تدفعنا إلى إعادة النظر في مكانتنا في العالم، وتقدير القوة الاستثنائية للرموز في تشكيل حياتنا وتجاربنا.

حيث أن كاسيرر يرتكز على فكرة أن الرمزية هي جوهر الإنسانية، حيث أن "قوة الفرض تتضمن حقيقة رمزية، وكانت هي السبيل إلى تقدم العلوم" (كاسيرر، 1961،ص.13). فالقدرة على ابتكار الرموز تتيح للإنسان تجاوز الإدراك الحسي المباشر، وبناء عوالم ثقافية معقدة.

رابعا: التمايز بين الأشكال الرمزية

يكشف إدراك كاسيرر العميق للأشكال الرمزية عن مفارقة مثيرة للهّتمام: فبينما تشترك جميعها في الوظيفة الأساسية للتمثيل، فإنها تختلف جذريا في منطقها الداخلي وأنماط تعبيرها. يمكن تشبيه ذلك بمقارنة التفاح بالبرتقال – فكلهّما فاكهة، لكنهما يختلفان اختلافًا شاسعا في الطعم والملمس والقيمة الغذائية. فكل نظام رمزي – سواء كان عل اما، ديناا، أو فنا – يشكل عدسته الفريدة التي يرى من خلّها الواقع ويفسره.

على سبيل المثال، يعتمد العلم بشكل كبير على الرموز المجردة والقابلة للقياس(التجريدية والكمية). فكر في المعادلات المعقدة أو المخططات الأنيقة التي تص ور الجسيمات دون الذرية، هذه هي اللبنات الأساسية لتفسيراته السببية. ويسعى المنهج العلمي، من خلّ الاختبار الدقيق والمراجعة من قبل الأقران، إلى الوصول إلى الحقيقة الموضوعية، في تناقض صارخ مع العالم الذاتي للفن.ففي العلم نحاول أن نتتبع الظواهر عودا إلى عللها الأولى وإلى القوانين والمبادئ العامة.(مخوخ، 2019، ص.

82).

أما الفن، فيعمل في كون رمزي مختلف تما اما،فالفن "عالم فكري" مستقل(كاسيرر، 1961،ص. 263). فالرموز الجمالية –ضربة فرشاة، نغمة موسيقية، أو شكل منحوت – تستحضر المشاعر، وتنقل الأحاسيس، وتخلق مساحة للتعبير الذاتي تكون عميقة الشخصية وغالبا غير قابلة للوصف. لا يسعى الفنان إلى تشريح الواقع، بل إلى تركيبه، لاستحضار عوالم مثيرة تنبثق من الخيال والشعور. إنها عملية أشبه بالسحر، حيث يتم تحويل التجربة الخام إلى شيء جميل وعميق المعنى.ففي الفن ننهمك في مظهرها القريب ونستمتع بهذا المظهر إلى أبعد حد بكل ما فيه من غنى وتنوع ، ولا نهتم بوحدة القوانين وإنما بتكاثر ضروب الحدس وتنوعها.(كاسيرر ، 1961 ، ص .82).

كذلك، يمتلك الدين لغته الرمزية الخاصة به. فالنصوص المقدسة، والطقوس، والأيقونات تساهم جميعها في بناء نظام من المعتقدات يقدم إجابات عن أكبر أسئلة الحياة، مان احا الشعور بالراحة والانتماء. وغالبا ما تكون رموزه مشبعة بدلالات عاطفية وروحية قوية، مما يجعلها تعمل على مستوى بعيد تما اما عن التجريبية العقلّنية للعلم.

يشدد كاسيرر على نقطة جوهرية: الواقع ليس كيانا ثابتا وموجودا مسبقا، بل هو بناء ديناميكي متغير باستمرار، يتشكل من خلّ تفاعلنا مع هذه الأشكال الرمزية المتنوعة. وبالتالي، فإن فهمنا للعالم هو فهم وسيطي بطبيعته – تتم تصفيته من خلّ العدسة الخاصة بالنظام الرمزي الذي نتعامل معه في أي لحظة. هذه النظرة المتعددة الأوجه تدفعنا إلى الاعتراف بالحدود والتحيزات الكامنة في أي نظام تمثيلي منفرد. إن غنى التجربة البشرية ينبع تحديدا من التفاعل، وأحيانا التناقض، بين هذه التفسيرات الرمزية المختلفة.

أحدث عمل إرنست كاسيرر الرائد حول الأشكال الرمزية ثورة في فهمنا للوعي، حيث عمل كجسر فلسفي يربط الهوة بين الثنائيات التقليدية. لم ينظر إلى الرموز على أنها مجرد أدوات، بل اعتبرها الأساس الحقيقي للوعي البشري – البنية التحتية التي يقوم عليها عقل الإنسان. فالرموز ليس لها إلا قيمة وظيفية (كاسيرر ، 1961،ص.78). تخيل الأمر بهذه الطريقة: وعينا ليس صفحة بيضاء تُكتب عليها التجربة، بل هو نسيج نابض بالحياة، محبوك بخيوط التفاعل الرمزي.

ومع ذلك، لم تكن نظرية كاسيرر الأنيقة بمنأى عن النقد. فقد تساءل بعض المعارضين عن مدى عالميتها – هل يمكنها حقا استيعاب التنوع الهائل للثقافات البشرية، التي يمتلك كل منها منظومته الرمزية الخاصة؟ بينما شكك آخرون في قدرتها على حل معضلة الفلسفة القديمة المتعلقة بالعلّقة بين الفكر والواقع، وهي مشكلة معقدة تشبه محاولة حل مكعب روبيك – قد نقترب من الحل، لكن الوصول إلى الكمال يظل أم ارا بعيد المنال.

بمعنى أدق: كاسيرر يعيد طرح الإشكالية الكلسَيكية حول علقَّة الفكر بالواقع، مح ِّوِ الا إياها إلى سؤال عن "كيفية تشكُّل الواقع عبر الممارسات الرمزية". وهكذا، تُصبح الثقافة نسي اجا رمزيًّا يُعيد الإنسان من خللّه صياغة وجوده، حيث "إن شئنا أن نفهم الحضارة الإنسانية فيجب أن نبحث كل صورة من هذه الصور الرمزية على حدة" (كاسيرر، 1961 ،ص.14).

ورغم هذه الاعتراضات، يبقى: تأثير كاسيرر عميقاا. فقد نجح بمهارة في تغيير النموذج الفلسفي، محو الا التركيز من السؤال العقيم نسبياا "ما هي الحقيقة؟" إلى السؤال الأكثر ديناميكية وإثارة "كيف نصنع الحقيقة؟" لقد فتح عمله آفاقاا جديدة لاستكشاف طبيعة إنتاج المعنى، وقوة اللغة، والتفاعل المعقد بين الرمز والتجربة. وهو إرث لا يزال يتردد صداه بقوة في الأوساط الفلسفية، محف ازا نقاشات مستمرة ومله اما رؤى جديدة حول الحالة الإنسانية. في جوهر الأمر، لم يقدِّم كاسيرر مجرد إجابات، بل طرح مجموعة جديدة تما اما من الأسئلة – وهذا، في حد ذاته، إنجاز هائل.

المطلب الثاني: دور الأشكال الرمزية في تشكيل الوعي والمعرفة الإنسانية

مفهوم "الأشكال الرمزية" عند أرنست كاسيرر هو جوهري تما اما لفهم نظرته إلى الوعي البشري و آليات إنتاج المعرفة. لم يكن كاسيرر يعتقد أن البشر عاجزون عن إدراك الواقع، لكنه رأى أننا لا نختبره مباشرةا كتيار حسي غير مفلتر. بل إننا نصوغه، نش ِكله، بل حتى نصارعه لجعله مفهو اما وقاب الً للإدراك من خللً الأنظمة الرمزية. حيث يقول كاسيرر :" ومادام الإنسان قد خرج من العالم المادي فإنه يعيش في عالم الرمزي ، وما اللغة و الأسطورة والفن والدين إلا أجزاء من هذا العالم ، فهذه هي الخيوط المتنوعة التي تحاك منها الشبكة الرمزية ، أعني النسيج المعقد للتجارب الإنسانية"(كاسيرر ، 1961، ص.67). تخيل الأمر بهذه الطريقة: التجربة الخام هي فوضى عارمة من الأحاسيس، لكن الأشكال الرمزية، مثل "اللغة" و"الفن" و"الدين" و"العلم" تعمل كعدسات، تحول هذه الفوضى إلى شيء ذي معنى ويمكن التحكم فيه. هذه ليست مجرد أدوات، بل هي وسائل جوهرية تتيح لعقولنا تنظيم فيض الحواس، وبناء تصورات ذهنية تتجاوز الإدراك الحسي البسيط. يمكن تشبيه ذلك بأخذ حفنة من الرمال وصنع قلعة رملية رائعة – الرمال هي التجربة الخام، أما الأشكال الرمزية فهي المخططات المعمارية والمهارات التي تصوغها إلى شيء جميل ودائم.

رأى كاسيرر أن هذه الأشكال الرمزية ليست مجرد إضافات سطحية، بل هي جوهر إنسانيتنا، والأساس الذي نبني عليه فهمنا للعالم. إنها بمثابة السقالات التي تشكل وعينا، مما يسمح لنا ببناء صروح شاهقة من المعاني انطلقًا من حبات صغيرة من الإدراك الحسي. وبدونها، سنكون عالقين في محيط من الإحساس غير المميز، عاجزين تما اما عن التنقل في تعقيدات وجودنا.

أولا: الرمز كوسيط بين الوعي والعالم

يرتكز العمل البصير لكاسيرر على نقد للثنائية التقليدية بين "الذات العارفة" و"الموضوع المعروف." فالعالمُ لا يُدرَكُ إلا عبر وساطة الرموز التي تُنتجُه. فالعلم، مث الً، يبني عالَ اما كميًّا تحكمه السببية، بينما يخلقُ الفنُ عالَ اما جماليًّا يعكسُ الذاتيةَ الإنسانية. هذا التعدُّدُ لا يُشير إلى تناقضٍ، بل إلى تكامُلٍ يُثري الوعي البشري، ويُظهِرُ محدوديةَ العقل في استيعاب ثراء الثقافة دون الرجوع إلى الرموز (Matherne, 2021, p. 117).

فهو يفكك ببراعة الفكرة القائلة بأن الفكر يعكس الواقع بشكل مباشر وبسيط وإنما هي علقَّة تَشَكُّلٍ مُتبادَل عبر الرموز. وبدلاا من ذلك، يقترح تفاع الً ديناميكياا، أشبه بتشارك رمزي في الخلق. فالعالم، في نظر كاسيرر، ليس كياناا مستقلاً تما اما، بل هو متشابك بشكل لا ينفصل مع النشاط الرمزي للإنسان. يمكننا تصور الرموز على أنها فلتَّر تش ِكل وتلون تجاربنا، وتمنحها معنى .

فاللغة، على سبيل المثال، تعمل كنظام رائع من العلمّات، حيث تحول الأحاسيس الخام غير المتميزة إلى مفاهيم مجردة "أسماء"، أفعال، بمعنى أن اللغة تستعيض عن الواقع بالمفاهيم (جورج،1993،ص.156). وكل البنية اللغوية مما يسهل التواصل ويضع الأساس للتفكير المنطقي. وبالمثل، لا تقتصر الفنون على التمثيل الحرفي، بل تعتمد على التعبير الإيحائي، فتعيد تشكيل الواقع من خللّ الرموز الجمالية، وتنقل المشاعر والأفكار التي تعجز اللغة المنطقية عن استيعابها بشكل مباشر. إنه أشبه بالمقارنة بين صورة فوتوغرافية ولوحة لبيكاسو، كلهّما يمثلنّ الواقع، ولكن بطرق مختلفة تما اما.

ومن هنا نصل إلى أن اللغةُ تُش ّ◌ِكل الوعيَ الإنساني من خللّ بنيتها الرمزية، حيث تُعتبر "افترا اضا وشر اطا للتأمل الفلسفي" (Cassirer ,1819,p.61) فالتأمل لا ينفصل عن اللغة، بل ينهض من خللّها، مما يجعلها أداةا لا غنى عنها لتنظيم التجربة. كما أن الغموض في اللغة ليس نق اصا، بل "لحظة أساسية وإيجابية من قوة التعبير"(Cassirer,1819,p.65)، إذ يفتح الباب لتعددية الدلالات وإثراء الفكر.

ثانيا: الأشكال الرمزية كمُح ّ◌ِددات للوعي

يبرز كاسيرر ببراعة سيولة الوعي البشري، فهو ليس كياناا ثابتاا، بل نتاج نابض لتفاعلنا مع الأنظمة الرمزية التي تحيط بنا (نتاج ديناميكي). فكل نظام او شكل رمزي، في جوهره، يبني وينتج "عالَمه" الخاص. العلم يصوغ ويبني عالماا تحكمه السببية والكمية، بينما يش ّكل الدين عالماا من القيم المطلقة والغائية. هذه العوالم لا تتعارض بالضرورة، بل تتداخل، مما يثري نسيج الوعي الفردي والجماعي، ويخلق تصو ارا متعدد الأبعاد للواقع. إنه أشبه بكاليودوسكوب (المشكاة الزجاجية) ،كل دوران له يكشف منظو ارا جديداا لكنه لا يقل صحة عن غيره. هذا ما يسميه كاسيرر بـ"الوعي الرمزي" ، وهو وعي قادر على تجاوز الحاضر المباشر، يمتد إلى الماضي من خللّ التاريخ، ويتطلع إلى المستقبل عبر التخطيط، بل ويخوض في عوالم الخيال عبر الأسطورة والفن. إنها رؤية مذهلة لاتساع العقل البشري وارتباطه بالعالم من خللّ عدسة الرموز القوية.

ثالثا : المعرفة كنتاجٍ للفاعلية الرمزية

المعرفة، كما يتضح، ليست مرتبطة جوهرياا بتمثيلها الرمزي. في الواقع، كل نظام من الرموز يُنتج نو اعا فريداا من المعرفة. بحيث ، في المجال العلمي، تتجلى المعرفة في شكل رموز رياضية، تختزل الظواهر المعقدة إلى قوانين قابلة للقياس (قوانين كمية). وعلى النقيض من ذلك، نجد أن المعرفة في الدين تتكشف من خللّ الرموز الأسطورية، التي تنسج سردياا ميتافيزيقياا يفسر الوجود. وهذه التعددية لا تمثل تناق اضا، إنما هو دليل على قدرة البشرية المدهشة على التكيف. إنه عرض مذهل لمرونتنا الإدراكية.

البشر، كما وصفهم كاسيرر في عبارته الشهيرة Animal Symbolicum، أي "الحيوان الرمزي"، يمتلكون قدرة فريدة على استحضار عوالم موازية، حيث ذكر أن الإنسان حيوان ذو رموز يضعها له عقله ليدرك ما حوله ثم ليخزن المعرفة فيه (بوادقجي، بدوي،الداية، 2020،ص.7). مما يوسع إدراكهم ويعمق فهمهم للعالم بطرق تبدو أشبه بالسحر. نحن نبني هذه العوالم الرمزية، هذه الشبكات المعقدة من المعاني، ليس فقط لفهم الكون الملحَظ، بل أي اضا لابتكار مناظر كاملة من الدلالات، مما يثري حياتنا بطرق عميقة. وكأننا نعيد كتابة سيناريو واقعنا باستمرار، مضيفين طبقات من التفاصيل والتفسير إلى البيانات الخام لتجربتنا.

تأمل التنوع الهائل للثقافات البشرية ، كل منها يمتلك أنظمته الرمزية الفريدة، وكل منها يوفر عدسة مختلفة لرؤية الكون. هذا ليس مجرد نسبوية ، إنما هو دليل على المرونة المذهلة للعقل البشري، وقدرته على إنشاء وإدراك عوالم متعددة في آن واحد.

لسنا مجرد مراقبين ، بل نحن مشاركون نشطون في بناء مناظرنا الإدراكية، نشكل فهمنا من خلاّ الرموز التي نبتكرها بأنفسنا. إنه تصور مذهل، بل يكاد يكون مرب اكا. والنتائج، بصراحة، مذهلة.

رابعا : النقد والتحليل: حدود الرمز وأبعاده الابستمولوجية

الحل الجذري الذي يقدّمه كاسيرر لمعضلة العقل والجسد القديمة ، بالتخلي عن الانقسام المألوف بين المثالية والواقعية (اي تجاوز الثنائيات الكلسّيكية) .بصراحة،هو أمر يثير الحيرة ويفتح المجال للتساؤلات . فهو يرى أن الرموز هي الأساس ذاته للوعي والمعرفة. لكن هل يعني ذلك أن الواقع نفسه مرهون بهذه الأنظمة الرمزية؟ هل الرمز، إذن، مجرد مفتاح سحري يكشف الحقيقة المطلقة، أم أننا محكومون دائ اما بفهم نسبي وذاتي للعالم؟

كاسيرر يتجنب بذكاء هذا المنحدر الميتافيزيقي. فهو غير مهتم بإصدار أحكام شاملة حول طبيعة الواقع المطلق، بل يركز

على الدور العملي للرموز. ويقترح أن وظيفتها الأساسية ليست كشف حقيقة كونية خفية، بل توفير إطار عملي يمكننا من التعامل مع عالمنا الفوضوي والمعقد. يشبه الأمر القول بأن الخريطة لا تهدف إلى تكرار التضاريس بدقة مثالية، وإنما إلى تقديم دليل مفيد يساعدك في الانتقال من النقطة (أ) إلى النقطة (ب). دقة الخريطة هنا نسبية، تعتمد على الغرض منها وليس على تمثيل مثالي ومطلق للأرض.يقول كاسيرر:»بدل الإنخراط في البحث عن الشروط العامة التي تمكن الإنسان من التعرف على العالم ، فإنه يبدو من الواجب حصر الأشكال الأساسية التي يفهم من خلالّها الإنسان هذا العالم«(Cassirer,1891,p.7،).هذا التأكيد يعكس الفكرة المركزية في فلسفة كاسيرر بأن الأشكال الرمزية ليست مجرد أدوات لتوصيل المعرفة ، بل هي الوسائل التي من خلالّها يعاد تشكيل الواقع وتفسيره.

هذا النهج البراغماتي يمثل في آنٍ واحد قوته وربما ضعفه. فمن خلاّ تجن'ب مزالق التأملاّت الميتافيزيقية، يترك بعض الأسئلة العالقة دون إجابة. فإذا كان فهمنا دائ اما محكو اما بالرموز، فكيف يمكننا التأكد من أننا نقترب من أي شيء يشبه الواقع الموضوعي؟ إنه لغز مثير، يدفعنا للتفكير في الحدود الجوهرية – وربما الإمكانيات المحررة – لوجودنا الرمزي. والنتائج المترتبة على ذلك واسعة النطاق، تمتد إلى نظرية المعرفة وحتى إلى فهمنا للتجربة الإنسانية ذاتها. إنه نقاش لا يزال يتردد صداه حتى يومنا هذا.

فلسفة الأشكال الرمزية عند كاسيرر تقدم تصو ارا جديداا للوعي والمعرفة. فهو لا يتخلى تما اما عن المشكلاّت الفلسفية التقليدية، بل يعترف بها، لكنه يقدم إطا ارا أكثر مرونة ة الإنسان بالعالم. يمكننا تشبيه ذلك بعدسة أكثر ليونة وأقل صلبّة لرؤية وجودنا. فبد الا من تبن'ي رؤية جامدة وأحادية للفهم البشري، يطرح كاسيرر تصو ارا حيويا، كنسيج متنوع محبوك من خوط ثقافية وتاريخية. فهو يجادل بأن إدراكنا للواقع ليس كيانا نقيا وموضوعيا، بل هو تفاعل ديناميكي بين عقولنا والأنظمة الرمزية – كاللغة والأسطورة والفن والعلم – التي تشكل فهمنا. الأمر أشبه بالنظر إلى حرباء؛ الكائن نفسه يمكن أن يبدو مختلفاا تما اما بنا اء على بيئته وحالته الداخلية.

وهذا ليس مجرد تمرين أكاديمي نظري ، بل له تداعيات حقيقية في العالم. فمن خلاّ الاعتراف بالتأثير العميق للسياقات الثقافية والتاريخية، يفتح كاسيرر الباب لتقدير أكثر دقة وتنو اعا للمنظورات المختلفة. فهو يو 'جه تحديا ضمنيا للرؤى العرقية

المركزية (الإثنوسنتري'ة)، مشي ارا إلى أن فهمنا للعالم متشابك بعمق مع إرثنا الثقافي الخاص. إنه بمثابة ترياق قوي ضد النظريات التبسيطية التي تحاول تقديم رؤية شاملة وثابتة للإدراك البشري. فعمله يسل'ط الضوء، في جوهره، على الطبيعة

المشروطة للمعرفة – كيف أن ما نعرفه يتحدد بالزمن والمكان اللذين نعرفه فيهما. إنها ليست حقيقة ثابتة لا تتغير، بل مشهد دائم التطور والتحول.

ورغم أن أفكار كاسيرر قد تبدو صعبة في البداية، فإنها في النهاية تفتح الباب أمام فهم أكثر ثرا ء وتعاطفا للحالة الإنسانية. إنها دعوة لتقدير التنوع المذهل للتجربة البشرية، بد الا من محاولة حصرها داخل إطار محدد مسبقا. إنه يترك لنا دعوة مقنعة

لإعادة تقييم افتراضاتنا حول المعرفة والوعي، بل وحتى حول طبيعة كوننا بش ارا. إنها مساهمة فلسفية عميقة، تدفعنا للتفكير، وربما لإعادة النظر في أسس رؤيتنا للعالم.

المطلب 3: التصنيف الأساسي للأشكال الرمزية: اللغة، الفن، الدين

إرنست كاسيرر، عملقٌ بين الفلسَفة، قدم تصنيفا منهجيا رائدا للأشكال الرمزية، موض احا دورها الحاسم في تشكيل الوعي البشري وإنتاج المعرفة. لم يكتفِ بمجرد استكشافها، بل تعمق فيها بدقة، مصنفا هذه الأشكال إلى ثلاثة أنظمة أساسية: اللغة، الفن، والدين. كل واحد منها، حسب رأيه، يعمل كعدسة فريدة نرى ونفسر من خلالها الواقع، كمنشور يعيد تشكيل العالم في وعينا.

يستكشف هذا البحث جوهر كل شكل رمزي، متتبعا دوره في تشكيل التجربة الإنسانية. فكر في الأمر بهذه الطريقة: اللغة، حجر الأساس للتواصل، تمكننا من بناء السرديات المعقدة، ومشاركة التجارب، ونقل المعرفة عبر الأجيال. إنها السقالة التي يرتكز عليها فهمنا الجماعي. حيث يقول هيردر :»اذا لم تكن اللغة مجرد نتاج العقل الإنساني فإنها لم تكن شيئا آخر باعتبار أن اللغة تعد من ذرية العقل بدونها لا يمكن تصور بداية حقيقة للفنون والعلوم« (الجزيري،1999،ص.98) أما الفن، فهو يتجاوز العقلانية الصرفة؛ إنه تجربة حسية، لغة عاطفية تخاطب أعمق مشاعرنا، متجاوزة الحاجة إلى التعبير الصريح. إنه قوة هائلة قادرة على استثارة التعاطف العميق أو إحداث تغيير ثوري. ثم هناك الدين، وهو نظام قوي من المعتقدات والطقوس يمنح الحياة معنى وغاية، ويوفر إطا ارا لمواجهة تعقيداتها. إنه مصدر للراحة والطمأنينة والشعور بالانتماء، وهو حاجة إنسانية أساسية.

لكن عبقرية كاسيرر لا تكمن فقط في تحليله لكل عنصر على حدة، بل في توضيحه للتفاعل المعقد بين هذه الأشكال الرمزية. فهي ليست جز ارا معزولة، بل مترابطة، تؤثر وتثري بعضها البعض باستمرار. فاللغة تؤثر في تعبيرنا الفني، والمعتقدات الدينية تشكل رؤيتنا للعالم، والإبداعات الفنية تلهم أشكا الا جديدة من التعبير اللغوي. إنها منظومة فكرية وتجريبية ديناميكية

دائمة التطور، ونسيج معقد من اللغة والفن والعقيدة الدينية. وفهم هذه العلَّاقات المتشابكة ضروري لاكتشاف عمق التجربة الإنسانية—رحلة مستمرة من الفهم والتأويل. إنه لغز متعدد الأوجه، وكاسيرر يمنحنا المفتاح لفك رموزه.

أو الا: اللغة كشكل رمزي

رؤية كاسيرر للغة ثورية بكل المقاييس. فهو لم يعتبرها مجرد أداة للتواصل أو مجرد وسيط لنقل الأفكار، بل رآها نظا اما رمزيا عميقا يش 'كل التجربة الإنسانية ويبنيها. فاللغة عند كاسيرر عبارة عن منظومة متناسقة سواء أكانت في تشكيلتّها أم مظهرها متمثلة برموز صوتية أو كتابية(بوادقجي، بدوي، الداية، 2020،ص.18) .تخي'ل الأمر على هذا النحو: اللغة ليست مجرد وصف للعالم، بل هي السقالة التي نبني عليها فهمنا له ، ومن خلّ مفرداتها وقواعدها، توفُر اللغة إطا ارا، نو اعا من البنية الذهنية، لتصنيف العالم وتصوره. إنها الوسيلة التي نحول بها المدخلّ الحسية الخام – ذلك الضجيج الفوضوي من الألوان والأصوات والروائح – إلى معنى مشترك. ف 'كر في كيفية تصنيفنا للألوان، أو في كيفية تسمية المشاعر المعقدة والتعامل معها. هذه ليست خصائص جوهرية في الكون، بل هي نتاج الأطر اللغوية التي نش 'كل بها إدراكنا للواقع.

رأى كاسيرر اللغة باعتبارها "الرمز الأول"، الحجر الأساس الذي تُبنى عليه جميع الأشكال الرمزية الأخرى : الفن، الأسطورة، الدين . حيث يقول : » اللغة هي الأداة الأولى ليس لصنع الأساطير و الأخيلة الشعرية و الأديان فحسب ، بل هي الأداة الأولى للتفكير المنطقي نفسه أيضا « .(كاسيرر،2009،ص.8). فاللغة بمثابة حجر رشيد يفك شفرة اللوَعي، ويح ّول همسات عالمنا الداخلي المبهمة إلى أفكار وتعبيرات واضحة. إنها النسيج الذي تتداخل فيه هذه البُنى الغنية للمعتقدات الإنسانية. إنها المح ّرك، أو القوة الدافعة وراء إنشاء هذه الظواهر الثقافية المعقدة. فمن دون القدرة على التسمية، والتصنيف، والتعبير، كانت هذه الهياكل المعنوية ستنهار ببساطة. في نظر كاسيرر، اللغة ليست مجرد انعكاس لواقعنا ، إنما هي العدسة التي نرى من خللّها العالم .

بمعنى أكثر دقة، تُمثِّل اللغةُ الشكلَ الرمزيَّ الأكثر أساسيةا، حيث تُعتبر "وحدةا" (Cassirer,1819,p.63) تدمج بين الدال والمدلول. وفي التصور الأسطوري، كما يوضح كاسيرر، "يتميز المفهوم الأسطوري للغة بغياب التمييز بين الكلمة والموضوع، فجوهر الأشياء يكمن في أسمائها" (Cassirer,1819,p.62). هذا يسلط الضوء على التطور التاريخي للغة من الوحدة الأسطورية إلى التمايز الفلسفي.

ثانيا: الفن كشكل رمزي

إن الأشكال الرمزية ذات أهمية بالغة وعظمى في تلك الدلالات الحاصلة في اللغة و الفن وفي كل فعاليات الروح والفكر الثقافي (خالدي،2020،ص.1) . فإن كاسيرر يركز على الفن لقدرته الفريدة في التعبير عن المشاعر الإنسانية والحس الجمالي، حيث قال أن الفن:»أصل كل فاعليات الإنسان الفكرية. إنها مرشدته الرئيسية: تظهر له الطريق التي تقوده تدريجياا إلى تصور جديد للعالم الموضوعي « (مخوخ، 2017، ص .82). وعلى عكس اللغة، التي تعتمد على الترجمة المفاهيمية،

يستخدم الفن شك الً من الرمزية البصرية – أو ربما يمكننا القول حتى اللمسية. فالرسام لا يقوم بوصف الغروب، بل يعيد خلقه، مُق ّط ارا جوهر التجربة على القماش. الفنان، سواء عبر اللون أو الصوت أو الحركة، يعيد تخي ّل الواقع، مصف ّيا ا إياه من خللّ عدسة تبرز الجانب العاطفي والحسي و الوجداني. إنه أسلوب مختلف تما اما في إدراك العالم.هذا ما يجعل كاسيرر يشدد على إلزامية الإقرار بأن الفن "عالم فكري" مستقل .(كاسيرر،1961،ص.263).

وهكذا يصبح الفن وسيلة لفهم العالم، ليس من خللّ المنطق البارد الجاف، بل عبر إحساس عميق بالجمال والانسجام. إنه طريق لتعزيز الوعي الإنساني بطرق لا تستطيعها العقلنَية الخالصة. إنه أشبه بفتح باب س ّري في العقل، يقود إلى غرفة مليئة بالفروق الدقيقة والملمس الحسي الذي تعجز الكلمات عن التقاطه. إنها تجربة شخصية بامتياز، غامرة، ولا يمكن استبدالها. فالفن لا يقوم بتشريح الواقع بأسلوب علمي جاف، بل يقد ّم تجربة شاملة، تكاد تكون روحانية. الفنان لا يُرينا العالم فقط ، بل يكشف لنا عن روحه. وربما يكون ذلك هو السحر الأعمق للفن .

ثالثا: الدين كشكل رمزي

رأى كاسيرر الدين كنظام رمزي – إطار معقد ومتقن – ص ُمم للتعامل مع الوجود ومعناه الأسمى. وقد صرح بسكال بأن الغموض والإبهام هما عنصرا الدين(كاسيرر،1961،ص.141).يفعل ذلك من خللّ رموز تج ّسد المقد ّس، مقد ّمةا إجابات عن الأسئلة الوجودية الكبرى. يمكننا تشبيهه بنسيج هائل ومتشابك، محبوك من الطقوس والأساطير والقصص. تش ّكل هذه العناصر العلقّة بين الإنسان والمقد ّس، وتضع بوصلة أخلقّية تحد ّد هوية المجتمع. يمكن القول إنه الصمغ الذي يربط المجتمعات معاا.فقد قال توما الإكويني :»إن الحقيقة الدينية فوق الطبيعي وفوق المعقول إلا أنها ليست حقيقة لا عقلية ، وبالعقل وحده لا تستطيع أن تتغلغل في خفايا العقيدة ، إلا أن تلك الخفايا لا تعارض العقل بل تتمه وتكمله «. (كاسيرر ،1961،ص.140).

مي'ز كاسيرر بين الرمزية الدينية والفهم العلمي، مشي ارا إلى اختلفٌ جوهري بينهما. فالرمزية الدينية تستخدم التمثيل الرمزي لاستكشاف ما هو غير مرئي وغير ملموس (الغيبيات) ، وقد ارتبط الدين في بداياته الأولى وتطوره التاريخي بعالم الفكر الأسطوري (مخوخ ،2017 ،ص.144)، بينما ير 'كز العلم على القوانين المادية المحسوسة. إنهما عالمان مختلفان تما اما، مثل التفاح والبرتقال. فبينما يقوم العلم بتشريح العالم الفيزيائي، يغوص الدين في العالم الروحي، مستكشفاا جوانب تتجاوز التفسير المنطقي البحت. يشبه الأمر محاولة شرح الشعور بالوقوع في الحب من خللً نموذج علمي صارم – لا يمكن ببساطة التقاط جوهره بالكامل.

ورغم هذا التباين، جادل كاسيرر بأن للدين دو ارا لا غنى عنه في فهم التجربة الإنسانية. فهو ليس مجرد بقايا من الماضي، بل عنصر أساسي في حياتنا الروحية، يقد'م العزاء والمعنى إطا ارا لمواجهة تعقيدات الوجود التي يصعب إدراكها. في جوهره، يوفر الدين عدسة أساسية نرى من خللها العالم ونف 'سره، حتى وإن لم يكن هذا التفسير قابلاً للتحقق العلمي دائ اما. إنه مسعى شخصي بامتياز، وتجربة إنسانية عميقة. وبصراحة، أحياناا نحتاج إلى ما هو أكثر من مجرد حقائق باردة وجامدة.

التحليل النقدي للتصنيف

يصن'ف كاسيرر الأشكال الرمزية بطريقة تقد'م رؤية مقنعة، وإن كانت معقدة، للواقع. فهو يرى أن هناك علقًة تكاملية بين هذه الأشكال – اللغة، الفن، والدين – حيث يساهم كل منها في تقديم منظور فريد. فاللغة، بحسبه، توفر إطا ارا لفهم العالم، أشبه بسقالة معرفية تدعم إدراكنا. أما الفن، فيضفي عليه ثرا اء جمالياا، ويضيف طبقات من الجمال والتأثير العاطفي. في حين أن الدين يُدخل بعداا أخلقيًا وروحياا، مان احا إحسا اسا بالمعنى والغاية يتجاوز البعد المادي البحت. فالدين يظل لغزا لا بالمعنى النظري فحسب وإنما بالمعنى الأخلقّي أيضا (كاسيرر،1961، ص.141). إذ ليست اللغة والفن والأسطورة والدين ، في الحقيقة ، موجودات خلقت منعزلة أو كونت عرضا ، وإنما هي مرتبطة معا برباط مشترك (كاسيرر،1961،ص.135) .

لكن رغم عمق إطار كاسيرر، إلا أنه ليس خالياا من أوجه القصور. فهو يبدو أحياناا غير مكتمل، إذ لا يتناول بالعمق الكافي القوة الرمزية للعلم أو التكنولوجيا – وهما من أكثر العوامل تأثي ارا في تشكيل فهمنا وتجربتنا للعالم. فهل يُعتبران مجرد فروعٍ ضمن الفئات التي يقترحها، أم يستحقان تصنيفاا خا اصا كأشكال رمزية مستقلة؟ هذا سؤال يستدعي المزيد من البحث والتأمل. علوًة على ذلك، فإن الحدود بين فئاته قد تبدو غير واضحة في بعض الأحيان، لا سيما عند النظر إلى العلقًة المعقدة بين الدين والفن. ففي العديد من الثقافات قد يبدو التمييز بينهما ضبابياا ، حيث تتداخل الرموز الدينية مع التعبير الفني. ومنه ، فإن هذه الصور تمثل تمثيلتًا للأشياء ، وتتفق مع خصائصها الأساسية(Cassirer,1819,p.15) وتعمل ضمن علقًات محايثة تحدد كيفية تفاعل الأشكال الرمزية مع بعضها البعض (Janz,1997,p.10) .

يتداخل التعبير الديني بشكل لا ينفصل مع الإبداع الفني. ف 'كر مث الً في النوافذ الزجاجية المل 'ونة في الكاتدرائيات القوطية، أو الأيقونات المزخرفة في الكنائس الأرثوذكسية الشرقية – هذه ليست مجرد قطع فنية، بل هي وسائل قوية لنقل المعتقدات الدينية، حيث يمتزج الجمال بالمقد'س في وحدة متكاملة. وهنا تصبح الحدود التي يضعها كاسيرر أشبه بشبكة ذات ثقوب واسعة، مما يكشف عن صورة أكثر تعقيداا، وربما أكثر دقة، للواقع الرمزي. إن محاولة الفصل بين هذه الأبعاد تشبه محاولة تفكيك خيوط نسيج متقن – فبينما يمكن تمييز كل خيط على حدة، إلا أن تداخلها يخلق كياناا موحداا متماس اكا. والتحدي الحقيقي يكمن في فهم هذا التفاعل الكلي، بدلاا من التركيز فقط على الأجزاء الفردية. في النهاية، يش 'كل عمل كاسيرر نقطة انطلقٍ قي'مة، لكنه يظل حوا ارا مفتو احا وليس خاتمة نهائية.

يقدّم تصنيف كاسيرر العميق منظو ارا ثريا، حيث يجادل بأن المعرفة الإنسانية ليست مجرد انعكاس سلبي للواقع، بل هي تفاعل ديناميكي بين الذات والأنظمة الرمزية. يمكن تخيّلها كمحادثة نابضة بالحياة، وليس مجرد صورة مرآة. ورغم أنه لا يقدّم حلاً نهائيا لإشكالية الثنائية بين العقل والجسد، أو العلقّة بين الفكر والواقع، إلا أن إطاره النظري يوفر عدسة مرنة وقابلة للتكيّف لرؤية الطبيعة المتعددة الأوجه للتجربة الإنسانية.

يتمكن كاسيرر بمهارة من تجنّب الثنائيات الصارمة التي لطالما أعاقت النقاش الفلسفي على مدار القرون – مثل الجدل التقليدي بين المثالية والمادية. فبدلا من الانحياز إلى أحد الطرفين، يتجاوز عمله هذه التناقضات المب 'سطة، مقدّ' اما فه اما أكثر دقة لكيفية تشكيلنا للمعنى من العالم من حولنا. إنه خروج منعش عن النماذج الحتمية الجامدة، حيث يفسح المجال أمام التعقيد والفوضى الخ 'لقّة التي تميّز الإدراك البشري.

في جوهر فكر كاسيرر، ليس فهمنا للعالم مجرد عملية "استقبال" سلبي، بل هو خلق نشط يتم عبر تفاعلنا مع الهياكل الرمزية – اللغة، الفن، الأسطورة – وهي النسيج ذاته لتراثنا الثقافي. هذا لا يعني أن الواقع نفسه غير مهم، بل يشير إلى أن إدراكنا له وفهمنا إياه يتأثران بعمق بالشبكة المعقدة من الرموز التي نعيش داخلها. إنها رؤية تلقى صدى عميقا، وتوفـ'ر أر اضا خصبة لمزيد من البحث في طبيعة الإنسان وغموض المعرفة ذاته.

تمتد تأثيرات هذا الإطار الفكري إلى ما هو أبعد من الفلسفة، حيث تطال مجالات مثل العلوم الإدراكية، والأنثروبولوجيا، بل وحتى الفنون. لهذا، يظل نموذج كاسيرر مساهمة قوية ودائمة الأثر في سعينا لفهم العقل البشري وعلقّته بالعالم.

المبحث الثاني: أسس فلسفة كاسيرر

بنا اءا على الإطار النظري الذي تم تأسيسه في المبحث السابق حول الأشكال الرمزية، يتناول هذا القسم الأسس الفلسفية التي يقوم عليها فكر إرنست كاسيرر. سنركز على ثلثّة محاور رئيسية: الارتباط الجوهري بين الفكر والرمز، دور الأشكال الرمزية كأدوات تفسيرية لفهم العالم . وأخي ارا، تحليل مقارن بين أفكار كاسيرر وأفكار عمالقة الفلسفة مثل إيمانويل كانط ومارتن هايدغر. يمكن اعتبار هذا المبحث بمثابة تعمق تحليلي في الأطروحة المركزية لكاسيرر: الرموز ليست مجرد أدوات تعبير، بل هي شرط لا غنى عنه – أي شروط أساسية – لتجربة الإنسان ذاتها.

المطلب الأول: العلاقة بين الفكر والرمز في فلسفة إرنست كاسيرر

يعتبر إرنست كاسيرر (1874-1945)، أحد أبرز رواد المثالية الألمانية النقدية الحديثة، أحدث ثورة في فهمنا لدور الرمز في تشكيل الوعي البشري. فقد أعاد تعريف العلقّة بين الفكر والرمز بشكل جوهري. راف اضا النهج الوضعي والتجريبي الذي يقلل من أهمية البُنى الرمزية في تكوين المعرفة، وجعل فلسفة الأشكال الرمزية وسيلة رمزية للمعرفة(عبد الوهاب، 2023، ص.901)، أكد كاسيرر أن الإنسان لا يدرك الواقع بشكل مباشر، بل يتلقاه عبر وسائط رمزية تعمل كشرط لا غنى عنه للإدراك والفعل البشري. يمكن القول إن الواقع أشبه بسديم شاسع متغير، بينما الرموز هي العدسات التي نرى من خللّها عناصره المك 'ونة، حيث يمنح كل مرشح رمزي منظو ارا مختلفا وممي ازا.

يمثل فكر كاسيرر تصحي احا جوهريا للواقعية الساذجة التي تفترض وجود صلة مباشرة وغير وسيطة بين العقل والعالم. إن رؤيته العميقة تشكل ما يمكن وصفه بأنه كيمياء دقيقة بين الفكر والرمز، وهي جوهر فلسفته. يمكن تخيلها كنسيج معقد محبوك من خيوط التجربة، تُفهم من خللً أنماط رمزية متشابكة. من دون هذه الأنماط، سيبقى هذا النسيج مجرد تشابك غير منظم من الخيوط التي تفتقر إلى المعنى.

وهنا نرى بأن كاسيرر ، يُجادل بشدة ليبين أن العقل الإنساني لا يُنتج المعرفة في فراغ، بل من خلالً تفاعله مع الأنظمة الرمزية. فـ "الوعي الأولي للعقل يجد اللغة معطاةا كواقعٍ فع'الٍ"(Cassirer,1819,p.61)،ما يؤكد أن الرموز تُش ِّْكل البنية التحتيّة للفكر نفسه.

أولا: الرمز كشرط أنطولوجي للفكر

تقوم فلسفة إرنست كاسيرر على فرضية جذرية: الفكر البشري ليس مجرد انعكاس سلبي للواقع، بل هو عملية تحويل فعالة، بل تكاد تكون سحرية، تتم عبر أنظمة رمزية . فالإنسان هو صانع الرموز وهو لا يحيا إلا بالرمز (عبد الهادي،2023،ص.905). ، لم يطلق كاسيرر على الإنسان اسم Animal Symbolicum (الحيوان الرمزي) كصفة عابرة، بل كتأكيد أنطولوجي أساسي. فالرموز ليست مجرد أدوات لنقل الأفكار الموجودة مسبقا، بل هي جوهر الفكر نفسه. وهذا يمثل قطيعة مع كانط، الذي رأى أن مقولات الفهم ثابتة وقبلية (a priori). على العكس، تصور كاسيرر عال اما رمزيا لا حدود له، ديناميكيا، تتجلى فيه أشكال الرموز عبر اللغة والأسطورة والفن والعلم، حيث تقوم كل منها بإعادة تشكيل المشهد المعرفي لدينا. يمكننا أن نتخيل الأمر على هذا النحو: عقولنا ليست صفحات بيضاء، بل لوحات غنية بالملمس، يُرسم عليها التجربة باستخدام فرشاة التمثيل الرمزي.

ثانيا: الجَدَلية بين التعبير والتشكيل

تتجلى العلقَّة بين الفكر والرمز كجدلية آسرة بين "التعبير"(Expression)و"التشكيل"(Formation). بحيث أن، الفكر لا يكتفي باستخدام الرموز للتعبير عن نفسه وذاته، بل إنه يعيد تشكيلها باستمرار.هذه الديناميكية تخلق حوا ارا حيا ومتواص الً – جدلية حقيقية – بين الذات والعالم. يشبه الأمر نحاتاا يتصارع مع الطين، يك 'رس نفسه للتنقيح والتعديل المستمرين،

حتى تتجلى الصورة النهائية.

خذ اللغة كمثال. فهي لا تترجم الأفكار الموجودة مسبقاا فحسب، بل إنها تش 'كل مسارات التفكير نفسها. ف 'كر في مدى اختلفَ التصورات الثقافية عن الزمن والمكان، والتي غالباا ما تتأثر مباشرة بالهياكل النحوية والأطر المفاهيمية المتجذرة في كل لغة. وكأن كل لغة تقدم عدسة فريدة، تصبغ فهمنا للواقع بألوانها الخاصة.فاللغة ولدت من الطابع الرمزي للعقل البشري .(عبد الهادي،2023،ص.903).

لذلك، فإن الرمز ليس مجرد وعاء سلبي، بل هو عامل فاعل في عملية التحول. إنه يح 'ول التجربة الحسية الخام إلى شيء يمكن فهمه، ويجسر الفجوة بين العابر والدائم.فبغير الرمز تكون "حياة الإنسان كحياة السجناء في سجن أفلطُون"(كاسيرر،1961،ص.92). وبالمقابل، يأخذ المجرد، الجوهر غير الملموس للمفهوم، ويصوغه في شكل ملموس يمكن إدراكه. في هذا السياق، يعمل الرمز كحافز قوي، كجسر بين العالم الداخلي للفكر والعالم الخارجي للتجربة. إنها عملية إبداع وإعادة إبداع مستمرة، حوار لا ينتهي بين العقل والمادة، يتجسد عبر اللغة المتجددة للرموز. والجمال يكمن، بطبيعة الحال، في الغموض الكامن، وفي الإمكانات المتعددة للتأويل، وفي التفاوض المستمر بين المُبدِع والمُف ِّْ'سر.

ثالثا: الرمزية والتحرر من الحتمية البيولوجية

يُقدِّم كاسيرر في عمله الرائد تحديا للرؤية الحتمية التي تقي'د الفكر البشري ضمن القوانين الصارمة لعلم الأحياء والفيزياء. فهو يرى أن الفكر الرمزي يمثل قفزة نوعية حقيقية في الوعي، وانحرافا مذه الً عن مملكة الحيوان. فكر في الأمر بهذه الطريقة: الحيوانات تستجيب للإشارات – مثل الزمجرة أو الرائحة أو الظل – بطريقة غريزية بحتة، إذ تكون ردود أفعالها

مبرمجة سلفاا. أما البشر، فلديهم القدرة الفريدة على تحويل هذه الإشارات إلى رموز، كيانات مجردة قادرة على تجاوز سياقها المادي المباشر. هذه القدرة التحويلية، التي تكاد تكون سحرية، هي الأساس الذي تقوم عليه الثقافة.فالإنسان حيوان صانع للرموز ويحيا ويشيد حضارته بالرمز.(عبد الهادي،2023،ص.901).

الثقافة، في نظر كاسيرر، ليست مجرد ناتج ثانوي للتطور البيولوجي، بل هي مجال رمزي مستقل، عالمٌ ذاتي المعنى. إنها نسيج نابض بالحياة من تفسيرات لا حصر لها، وسردية دائمة التطور تتشكل بفعل القدرة البشرية على الفهم العميق. إنها ليست نظا اما ثابتاا أو مُقدَّ ارا سلفاا، بل مشهد ديناميكي متغير باستمرار، حيث يتم التفاوض على المعنى، ويُعاد تشكيله وإعادة تعريفه بلا توقف. فنحن لا نستقبل المعنى بشكل سلبي، بل نخلقه بنشاط، في عملية معقدة ومتعددة الأبعاد كفسيفساء متغيرة إن هذه القفزة من الإشارة إلى الرمز تحررنا، بطريقة ما، من قيود الحتمية البيولوجية. فهي تتيح مستوى من التعبير الإبداعي والتفكير المجرد لا يمكن تصوره في أي كائن آخر. إنها أصل قدرتنا على الفن والفلسفة والعلم – الأمور التي تع 'رف إنسانيتنا ذاتها. إنها تذكير قوي بأننا لسنا مجرد كائنات تحكمها الغرائز، بل صناعٌ للمعنى، ومهندسون لواقعنا الثقافي الخاص. إن لهذه الفكرة تداعيات عميقة، إذ تقترح فه اما أكثر ثرا ء وتعقيداا لما يعنيه أن تكون إنساناا، يفوق بكثير أي منظور بيولوجي محض. إن القدرة على إنشاء الرموز والتلعُّب بها – على نسج السرديات، وبناء الأيديولوجيات، وتشييد الحضارات – هي ما يميزنا حقاا. إنها النبع الذي تنبثق منه إنسانيتنا.

رابعا: النقد المعرفي للرمز

يطرح كاسيرر إشكاليةَ الواقع المُتعالِّي (Noumenon) الكانطي، مُجاد الا بأن الرموز لا تحجب الواقع بل تُتيح الوصول إليه وفقاا لشروط التاريخ والثقافة. فالحقيقة ليست مُطلقةا، بل مُتعددةا، تتنوع بتعدد الأشكال الرمزية. مثلاً، يُنتج العلم حقائقه عبر الرموز الرياضية، بينما يُنتج الفن حقائقه عبر الرموز الجمالية، فهو تجسيد للشعور وإخضاع للطبيعة(عبد

الهادي،2023،ص.903)، دون تناقضٍ بينهما، إذ كلٌّ منهما يُج ِّسدُ بعداا من أبعاد التجربة الإنسانية.

يقدم كاسيرر نقداا ثاقباا لمفهوم المعرفة الرمزية، حيث يواجه بشكل مباشر الفكرة الكانطية المتعالية عن "الشيء في ذاته"—تلك الحقيقة غير القابلة للإدراك التي تتجاوز نطاق تصورنا. لكنه يتجاوز بمهارة الفكرة القائلة بأن الرموز تعمل كحجاب يحجب الواقع. على العكس، يرى كاسيرر أن الرموز ليست عوائق، بل مفاتيح تفتح لنا أبواب الفهم، وإن كان ذلك ضمن حدود السياقات التاريخية والثقافية.

هذا لا يعني تبني نسبية مطلقة، بل يؤكد على الطبيعة المتعددة الأوجه للحقيقة. فالحقيقة، في نظر كاسيرر، ليست كياناا مطلقاا وثابتاا، بل هي أشبه بفسيفساء متلألئة تعكس تنوع تعبيراتها الرمزية.

تخيل الأمر بهذه الطريقة: العالم يبني الحقيقة من خلاَ لغة الرياضيات الدقيقة، وهي بحد ذاتها نظام رمزي. في المقابل، الفنان يصوغ الحقيقة من خلاَ القوة التعبيرية للرموز الجمالية. لا يوجد تناقض جوهري هنا، ولا نشاز فكري. فكل مجال، وكل إطار رمزي، يكشف عن جانب فريد من التجربة الإنسانية، مما يثري فهمنا للعالم ويجعله أكثر عمقاا وتنو اعا. إنها أشبه بالنظر إلى جوهرة متعددة الأوجه؛ كل جانب يعكس ضو اءا مختلفاا، لكن جميعها تنتمي إلى نفس الكيان الباهر. الحقيقة العلمية والحقيقة الفنية ليستا متضادتين، بل متكاملتين، حيث تقدمان مسارات مختلفة، لكنها متساوية القيمة، نحو المعرفة.

تكمن عبقرية كاسيرر في كشفه للرقصة المعقدة بين الرمز والواقع، موض احا كيف أن أنظمتنا الرمزية، بدلاا من أن تكون عوائق أمام إدراكنا للعالم، تشكل الهيكل الأساسي الذي نبني عليه فهمنا. إنه منظور آسر، لا يزال يجد صدى واسعاا بين الباحثين حتى يومنا هذا.

خامسا: التفاعل بين الذات و الموضوع عبر الرمز

يعيد كاسيرر صياغة فهمنا للثنائية بين الذات والموضوع بطريقة ثاقبة. لم يعد الأمر مجرد نموذج قديم ومب ُسط لطريقٍ باتجاه واحد—إما ذات مهيمنة أو موضوع مسيطر (علاقةٍ أحادية الاتجاه). بل يصور لنا تفاع الً حياا، رقصة ديناميكية حيث تعيد الرموز تشكيل ك ٍل من الذات والموضوع. ف ّكر في الأمر كما لو كان خ ّزافاا وطيناا: الطين لا يُشكَّل ببساطة، بل يشارك في عملية الخلق، ليصبح شيئاا جديداا في النهاية.

في بوتقة الإبداع الرمزي ،سواء كان ذلك في الفن، أو الأسطورة، أو حتى في فعل التسمية البسيط ظاهرياا، لا تقتصر الذات على التعبير عن نفسها، بل تكتشف ذاتها. يشبه الأمر تقشير طبقات البصل، حيث تكشف كل طبقة فه اما أعمق للذات من خلالً فعل التعبير نفسه. وفي الوقت ذاته، فإن الموضوع، الذي كان في السابق كياناا جامداا وساكناا، يتح ّول. لم يعد مجرد متلقٍ سلبي؛

بل يصبح مشار اكا نش اطا في حوار ديناميكي، وشري اكا في عملية الخلق والتكوين. إنها علاقةٌ تكافلية، أشبه برقصة فكرية متناغمة.

وهذا ليس مجرد تمرين نظري، بل هو تح ّول جوهري في المنظور. إنه يشير إلى أن فهمنا للواقع مرتبط ارتبا اطا وثيقاا بأنظمتنا الرمزية. فنحن لا نرصد العالم فحسب، بل نصنعه بنشاط من خلالً تفاعلاتنا الرمزية. إنها عملية مرنة، متجددة باستمرار، ومفاوضة دائمة بين ذواتنا الداخلية والعالم الخارجي، يتوسطها السحر القوي للرموز. إنه سيرورة مذهلة في تعقيدها، لكنها في جوهرها إنسانية بامتياز.

ترتكز فلسفة كاسيرر على علاقة شبه سحرية بين الفكر والرمز، وهي الأساس الذي يبني عليه رؤيته للوجود والمعرفة(أساس أنطولوجي ومعرفي) ، حيث يرى الإنسان ككائن ثقافي في جوهره. يمكننا تخيل الأمر على النحو التالي: الرموز هي السقالات التي نبني من خلالها فهمنا للعالم. من خلالها، نتجاوز البعد البيولوجي البحت، ونهرب من قيود الطبيعة الخام وغير المر ّوضة.

نحن نبني عالماا من المعاني، صرحاا كاملاً من الدلالات، وهذا العالم بدوره يعيد تشكيل وعينا. إنها رقصة ديناميكية متبادلة،

عملية أخذ وعطاء مستمرة. وقد أكد ذلك كل من إرنست كاسيرر وسوزان لانجر في تصريحهما بأن الرمز هو الطاقة الفكرية للمعاني والدلالات ويتميز الشكل الرمزي بأنه يخلق علاقات بين الإشارات الحسية والمعاني.(عبد الهادي،2023،ص.901) هذا التفاعل الجدلي لا يقتصر فقط على كشف آليات المعرفة، بل يفتح لنا أبواب فهم أعمق وأكثر ثرا اء للتنوع الثقافي وتشابكاته المعقدة. إن منظور كاسيرر يقدم فلسفة شاملة ومتآلفة، كبديل منعش للتقسيمات الثنائية الصارمة التي أثقلت الفكر الفلسفي لقرون. فهو ببراعة يفكك الثنائيات التقليدية – مثل إشكالية العقل والجسد، والانقسام بين الذات والموضوع – ويستبدلها بنموذج أكثر مرونة وترابطاا. وكأنه يكشف لنا عن نسيج معقد من المعاني، بدلاا من صورة مسطحة ذات بعدين فقط. يدعونا عمله إلى تأمل تعقيد التجربة الإنسانية بحيويتها، متجاوزين التصنيفات المبسطة، ومعانقين الغنى المتعدد الأبعاد للتعبير الثقافي.

المطلب الثاني: الأشكال الرمزية كأداة لفهم العالم

يرتكز عمل كاسيرر على فكرة أن الأشكال الرمزية (كاللغة، الأسطورة، الدين، الفن، والعلم) ليست مجرد أدوات تعبيرية، بل هياكل أساسية تُش ِّكل إدراكنا للواقع. فالدين، على سبيل المثال، لا يُختزل إلى عقائد جامدة، بل يُعدّ نظا اما رمزيا يُعيد تشكيل الوعي البشري عبر علقَّة تفاعلية مع الأسطورة. يوضح كاسيرر أن الطبيعة الخاصة للشكل الديني "تتجلى في الموقف الجديد الذي يتبناه الوعي، في مواجهة الصورة الأسطورية للعالم" (Cassirer, 1925, p. 173).

هنا، ينشأ توتر جدلي بين الدين والأسطورة: فبينما يسعى الدين إلى تنظيم المعتقدات في إطار عقلَني، تظل الأسطورة تعبي ارا عن اللوَعي الجمعي، مما يخلق حوا ارا مستم ارا بين العقل الخالص والرمز الميثولوجي.

هذا التفاعل لا يعني طمس الحدود بينهما، بل إعادة تعريفها. فكاسيرر يرفض الخلط بين الدين والأسطورة، مؤكدا أن كليهما يشكلنً طبقات متمايزة من التجربة الرمزية: "وضع كل من الخلط بين الدين والأسطورة وبناء الدين في حدود العقل الخالص جانباا، من أجل علقَّة جدلية بين الأسطورة والدين" (Cassirer, 1925, p. 173). بمعنى آخر، الدين لا يُختزل إلى أسطورة مُعقلنة، ولا تُعتبر الأسطورة دينا ابدائيا، بل كلهُّما نظامان رمزيان يُثرِّيَان فهم الإنسان للوجود عبر آليات مختلفة.

بمعنى أكثر وضوحا، رأى كاسيرر أن الأشكال الرمزية—مثل اللغة، والفن، والدين، على سبيل المثال لا الحصر—ليست مجرد تفسيرات للواقع، بل هي صانعة لعالم بشري غني بالطبقات (متشعب). فاللغة، على سبيل المثال، لا تقتصر على نقل المعلومات، بل تش ِّكل إدراكنا للزمان والمكان والسببية، وتعمل كنوع من السقالات المفاهيمية. أما الفن، فيتجاوز حدود المنطق ويتخلص من قيوده، مقد ِّما منظورا جماليا لا يقتصر على التمثيل الواقعي فقط، بل يفتح نافذة على الروح، إذا جاز التعبير. فالفن ليس مجرد نسخة سلبية لشكل العالم، وإنما علقَّة جديدة يتموضع فيها الإنسان تجاه العالم.(مخوخ،2018،ص.84). في حين أن الدين يتعامل مع الأسئلة الوجودية الكبرى والألغاز الميتافيزيقية (الغيبيات)، مُش ِّكلاً وعيا جمعيا موحدا من خللً أنظمة معتقدات مشتركة. إنها قوة هائلة، بلً شك. فالدين "في حدود العقل الخالص" - كما تصوره كانت واستنتجه لا يعدو أن يكون محض تجريد -فهو لا يحمل إلا الصورة المثالية ، إلا الظل من الحياة الدينية الأصيلة الملموسة.(كاسيرر،1961 ،ص.68).

يبرز هذا التنوع في الأشكال الرمزية الطبيعة التفسيرية للمعرفة الإنسانية. فهي ليست مجرد انعكاس مباشر للواقع، بل عملية ديناميكية مستمرة لصنع المعنى. وهنا يبتعد كاسيرر عن رؤية كانط (النموذج الكانطي)، الذي تص ّور العقل وحصره باعتباره

يعمل ضمن فئات ثابتة. على العكس، رأى كاسيرر أن الأشكال الرمزية كيانات مرنة ومتطورة (أنساق حيوية)، تتش ّكل وفقا للسياقات التاريخية والثقافية. واعتبر الرمز بمثابة "نافذة إلى الروح نحو العالم"، وهو مضمون من الدلالات الفكرية(عبد الهادي،2023، ص.903) ،إذ يُتيح للإنسان أن يُعيد خلق الواقع باستمرار عبر تفاعله الإبداعي معه.

لكن هذا المنظور يثير تساؤلا جوهريا: إذا كانت معرفتنا كلها مُمثلة بالرموز، فهل يصبح الواقع مجرد بناء رمزي؟ يجيب كاسيرر بأن الأشكال الرمزية لا تنفي الواقع الموضوعي، بل تن ّظمه وتبنيه، مما يجعله قابلاً للفهم البشري. فـ"الحقيقة"، بالنسبة له، ليست مجرد تطابق بسيط بين العقل والواقع (كما في المثالية الكلسَيكية)، بل هي تفاعل ديناميكي بين الذات العارفة والأطر الرمزية (الأشكال الرمزية) التي تمنح العالم التماسك والمعنى. إنها أشبه برقصة مزدوجة بين المراقب والمُراقَب.

كما نجد ، في مقارنة مع فلسًفة آخرين أن أفكار كاسيرر تتناقض بشكل حاد مع الوضعية المنطقية، التي تقلل من دور الرموز لصالح "الحقائق المجردة"، ومع هايدغر، الذي اعتبر أن الميتافيزيقا الغربية فشلت وأخفقت في فهم الوجود و تشابكها و انغماسها في التمثيلتً الرمزية. لكن كاسيرر رأى أن الرموز ليست عقبات و عوائق، بل هي ضرورات لفهم الوجود ذاته.

إنها الأدوات الأساسية التي نحتاجها للتعامل مع الكون.فكاسيرر يولي أهمية كبيرة للرمز ، وذلك بالنظر إلى دوره في كشف "أسرار" عالم الإنسان وفهمه ، فهو بمثابة "مفتاح سحري" لهذا العالم وثقافته. (مخوخ،2017،ص.105).

في النهاية، تستند فلسفة كاسيرر إلى مفهوم الإنسان الرمزي (homo symbolicus)، أي الكائن الرمزي. وقد عرفه كاسير بأنه :»حيوان ذو رموز« (كاسيرر ،1961ص.70) على عكس الكائنات الأخرى، لا يقتصر الإنسان على الاستجابة الغريزية للعالم، بل يعيد تشكيله من خلاَ الرموز، متحررا من قيود الحاضر المادي المباشر، ومفتتحا آفاقا غير محدودة للإبداع والتفسير. يمثّل عمله دفاعا قويا عن التعددية المعرفية، مؤكدا أن أي شكل رمزي لا يحتكر الحقيقة بمفرده، بل تتشابك هذه الأشكال معا، لتخلق نسيجا غنيا متعدد الأبعاد من الفهم. إنها رؤية قوية لا تزال تترك صداها حتى اليوم.

التحليل النقدي

يطرح عمل كاسيرر، رغم كونه ثوريا في سعيه إلى ردم الهوة التقليدية بين الفكر والواقع، إلا أن إشكالية المرجع الموضوعي للرموز تبقى قائمة . وإذا كانت كل المعرفة متو 'سطة من خلاَ الرموز، فكيف يمكننا التحقق من حقيقتها خارج الإطار الرمزي ذاته؟ الأمر أشبه بمحاولة الإمساك بالدخان— تشعر بوجوده، لكن تثبيته يظل صعب المنال.وأيضا هل يكفي مجرد التفاعل بين الأشكال الرمزية لضمان المعرفة الموضوعية؟

إن منهجه الثوري، رغم أنه لا شك عميق، لا يمحو القضايا الفلسفية التقليدية القديمة بضربة سحرية؛ بل يعيد صياغتها ضمن سياق رمزي أكثر تعقيدا. يمكننا تشبيه ذلك بالانتقال من دراجة هوائية قديمة إلى دراجة نارية متطورة—أسرع وأكثر تطورا،لكنها في النهاية تخدم الغرض ذاته: إيصالك من النقطة A إلى النقطة B. غير أن الرحلة أصبحت أكثر تعقيدا بكثير. تبقى المشكلاتً قائمة، ولكن في صورة جديدة، أكثر تحديا. على سبيل المثال، لم يعد السؤال عن الحقيقة مجرد مسألة تطابق بسيط، بل تحول إلى رقصة دقيقة بين التفسير والتمثيل. إنه تغيير مثير، وإن كان محتملاً أن يكون محبطا للبعض.

إسهام كاسيرر هائل—بل يمكن اعتباره نقلة نوعية—لكن عمله لا يقدم جميع الإجابات. وكأننا أمام اختبار رورشاخ مثالي الصنع، يطرح علينا المزيد من الأسئلة أكثر مما يحل. يبدو أن السعي وراء الحقيقة الموضوعية لا يزال مستمرا، ولكن هذه المرة داخل مشهد رمزي متشابك ببراعة. نحن عالقون في تأمل هذا النسيج المعقد من المعاني، نلحّق بلاَ نهاية فراشة اليقين المطلق التي تظل دوما بعيدة المنال.

المطلب الثالث: مقارنة بين كاسيرر وفلاسفة آخرين (كانط/هايدغر)

أولا: كاسيرر وكانط: من المقولات القبلية إلى تعددية الأشكال الرمزية

يُعَد إرنست كاسيرر وريثًا فلسفيًا للتقليد النقدي الكانطي، لكنه أعاد صياغة المفاهيم الكانطية بشكل يتلاءم مع التحولات الجذرية التي شهدها القرن العشرون. في نقد العقل الخالص، طرح كانط مفهوم "المقولات القبلية" (a priori)—مثل السببية والكمية والجودة—كأدوات ضرورية لتنظيم التجربة الحسية. كانط تصوَّر العقل باعتباره قوة تفرض بنيتَه على الواقع، مح وِّلًا "الظواهر" إلى تجارب منظمة، بينما ظل "الشيء في ذاته" (noumenon) عصيًّا على الإدراك.

يمكننا تشبيه ذلك بنحَّات يش 'كل الطين :فالمادة الخام موجودة، لكن رؤية النحَّات هي التي تحدد الشكل النهائي. فحسب كاسيرر ، فتح كانط "بانتقاله من نقد المعارف إلى نقد العقل" ،البحث في إمكانات إنتاجات العقل كلها ، أي ليس العلم فحسب ، بل الدين والفن والتقنية

وغيرها أيضا ، أو ما يسميها كاسيرر في اصطلحَه ب"الثقافة".(مخوخ،2017،ص.140).

لكن كاسيرر تخلَّى عن هذه الرؤية الأحادية الجامدة. لقد استبدل مقولات كانط الثابتة بطيف ديناميكي من "الأشكال الرمزية"— كاللغة والفن والدين والعلم، وغيرها. هذه الأشكال، بحسب كاسيرر، ليست مجرد أدوات تحليلية، بل وسائل حية لإنتاج المعنى في سياقات تاريخية وثقافية متعددة. إذا كان كانط قد نظر إلى العقل وكأنه آلة موسيقية واحدة ذات نغمة محددة، وبفضل بقده للعقل قد قدم مفتاح العالم الإنساني.(مخوخ،2017،ص 140). فإن كاسيرر تخيله كأوركسترا كاملة، حيث يساهم كل آلة موسيقية في تشكيل اللحن العام بأسلوبه الخاص.

والأهم من ذلك، رفض كاسيرر ما يمكن تسميته بـ "الوحدانية المعرفية" (epistemological monism) التي يوحي بها كانط. فقد رأى أن العقل البشري ليس كيانا ثابتا، بل كيان مرن، يتغير ويعاد تشكيله باستمرار من خلال تفاعله مع أنظمة رمزية مختلفة. وبينما ركز كانط تحليله على شروط إمكانية العلوم الطبيعية (وخاصة فيزياء نيوتن)، و سع كاسيرر هذا الإطار ليشمل كل الممارسات الثقافية التي تعبر عن رؤية الإنسان للعالم. وبذلك، لم يعد الواقع مجرد نتاج لمقولات عقلية ثابتة، بل أصبح كيانا متعدد الأوجه، يتشكل باستمرار عبر التمثيلات الرمزية. فبد لا من كونه بنية مُسبقة الصنع، أصبح الواقع أقرب إلى مشهد متغير، أشبه بكاليدوسكوب يعكس زوايا متعددة للرؤية.
في جوهره، كان مشروع كاسيرر امتدادا رائعا للفلسفة النقدية الكانطية. لقد أخذ المبادئ الأساسية التي وضعها كانط—دور العقل الفعال في تشكيل التجربة—وأضفى عليها فه اما غنيا لتعددية التعبير الثقافي البشري عبر الزمن. والنتيجة هي تفسير أعمق وأكثر تنو اعا لكيفية فهمنا للعالم ولموقعنا فيه. إنها شهادة على قدرة الفلسفة النقدية على التطور والتكيف مع التحديات والاكتشافات الجديدة.فإذا كان كانط قد ارجع الأسئلة الفلسفية الكبرى إلى سؤال:»ما الإنسان ؟« ، فإن فلسفة كاسيرر يمكن فهمها باعتبارها »فلسفة للثقافة«وترجع الاسئلة التالية: ما الأسطورة ، ما الدين ؟ ما اللغة ؟ ما الفن ؟ ما التاريخ ؟ ما العلم ؟ إلى سؤال مركزي واحد هو »ما الإنسان؟« (مخوخ،2017،ص.140).

ثانيا: كاسيرر وهايدغر: الصراع بين الرمزي والوجودية

تبدو مقارنة إرنست كاسيرر ومارتن هايدغر أكثر إشكالية وليست بالمهمة السهلة ، تج سد خلفُهما العميق في ضوء "مناظرة داڤوس" (1929)، التي تجسدت فيها الاختلَافات الجوهرية بين فلسفة الرمز عند كاسيرر والفينومينولوجيا الوجودية عند هايدغر. فبينما يرى كاسيرر أن الإنسان "حيوان رمزي" (Animal Symbolicum) وقد أكد ذلك في قوله:» الإنسان حيوان ذو رموز «(كاسيرر،1961،ص.70).يبني عوالمه عبر أنظمة وشبكات دلالية، يؤكد هايدغر أن الوجود الإنساني "الدازاين" (Dasein) يُدرك ذاته أو لا عبر التجربة الوجودية المباشرة (القلق، الموت، الزمنية)،قبل أي تمثيل رمزي. حيث يبين هايدوغر أن "الدازاين" هو الذي يقوم بفهم الوجود والإنصات إليه (Entente)من خلال التعالي إليه (مخوخ،2017،ص.92).
هايدغر، باعتباره ناقدا للكانطية الجديدة (التي كان كاسيرر أحد رموزها البارزين)، رفض تركيزها على "المعرفة" على حساب "الوجود".حيث يرى هايدغر أن غاية كانط الأساسية تتمثل في تشييد "نظرية الوجود" أو "الأنطولوجيا العامة".(مخوخ،2017،ص.86).
معتب ارا أن التحليل الرمزي يغفل السؤال الأنطولوجي الأساسي: ما معنى الوجود؟ بمعنى أبسط ، التحليل الرمزي مجرد انحراف عن القضية الفلسفية الأساسية: السؤال الجذري عن الوجود ذاته. يمكننا تشبيه الأمر بكاسيرر الذي ينشغل بفهرسة الطوابع بدقة، بينما هايدغر يتأمل في ماهية عمل البريد نفسه.

لكن كاسيرر لم يترك هذا النقد يمر دون رد، إذ جادل بأن هايدغر يقلّل من الدور المحوري للرمز في تشكيل الوعي ذاته. حتى التجارب الوجودية الخام وغير المتوسطة، مثل القلق، لا يمكن فهمها إلا من خلاّ وسائط رمزية مثل اللغة أو الفن. إنه صراع فكري شيق: هايدغر يبحث في البُنى ما قبل الإدراك التي تؤسس الفهم (البُنى الوجودية المُسبقة للفهم)، بينما يرى كاسيرر أن هذه البُنى ذاتها تتشكل تاريخيا من خلاّ الرموز. يمكننا تخيلهما كفنانين يعملاّ على نفس الكتلة الرخامية، لكن برؤى مختلفة تماما للنحت النهائي. أحدهما يركز على الخصائص الجوهرية للحجر، بينما يهتم الآخر بالأدوات والتقنيات التي ستصوغ الشكل النهائي. النتيجة؟ مواجهة فلسفية آسرة، لكنها، في النهاية، بلاً حسم قاطع.

ثالثا: إشكالية العلاقة بين الفكر والواقع: حلول مؤقتة أم تحول جذري؟

العلقّة بين الفكر والواقع، عند النظر إليها من خلاّ عدسات إرنست كاسيرر وإيمانويل كانط ومارتن هايدغر المتباينة، تكشف عن تباين فلسفي مثير للهّتمام.

يشبه الأمر مقارنة التفاح بالبرتقال، ثم إضافة ثمرة كمكونات للمزيج – إذ يقدم كل منهم منظو ارا فريداا لنفس السؤال الأساسي.

كانط، بثنائيته الصارمة، أقام فجوة ميتافيزيقية تبدو غير قابلة للتجاوز بين "النومن" (الواقع في ذاته) و"الفينومن" (الواقع

كما يُدرك). هذا الانقسام الصارم يضع جدا ارا لا يمكن اختراقه، مما يجعل الطبيعة الحقيقية للواقع غير قابلة للمعرفة. يمكن القول إنه يصل إلى نتيجة مفادها أن حدود الفهم البشري هي، بشكل متناقض، حقيقة نهائية ولكنها محبطة. إنه أشبه بنهاية مسدودة فلسفية، لكنها مصاغة بدقة متناهية.

أما هايدغر، فقد أعاد صياغة السؤال برمته. بد الا من التركيز على العلقّة بين الفكر والواقع، قام بتفكيك مفهوم "الوجود"

ذاته. لقد رأى أن الإنسان هو في جوهره "كائن-في-العالم"، متجاو ازا بذلك ثنائية الذات والموضوع بالكامل. يمثل هذا تحو الا جذريا، فالواقع ليس منفص الّ عن الوجود البشري، بل يتشكل من خلّه. إنها طريقة مختلفة تما اما في تأطير المشكلة.حيث نجد كاسيرر يؤكد أن هايدغر اختزل قوى المعرفة وملكاتها كلها في الخيال، وأذاب المنطق في تساؤل حول الوجود، ونزع عن الحرية كل أساس يمكن أن تقوم عليه، بل اعتبرها اللأّساس لدازاين.(مخوخ،2017،ص.101).

أما كاسيرر، فقد رفض الثنائيات الجامدة بالكامل، في خطوة تكاد تبدو ثورية مقارنة بالآخرين. لقد طرح أن الواقع يُبنى من خلاّ "الأشكال الرمزية" – اللغة، الأسطورة، العلم، الفن، وما إلى ذلك. هذه ليست مجرد أدوات سلبية، بل هي قوى فاعلة تشكل الواقع ذاته. التفاعل الديناميكي بين هذه الأشكال يخلق واقعاا متعدد الأوجه، متطو ارا باستمرار، وغير مكتمل بطبيعته. إنه أشبه بنسيج حي دائم التغير، وليس لوحة ثابتة.

يرى كاسيرر أن كل شكل رمزي، سواء كان نموذ اجا علميا أو نظا اما أسطوريا، يقدم تفسي ارا جزئيا وقاب الّ للمراجعة للواقع. هذه التفسيرات مؤقتة بطبيعتها، تخضع للتنقيح بل وحتى للسّتبدال. ومع ذلك، فإن النقد والتطور التراكمي لهذه الأشكال الرمزية يمكن أن يؤدي إلى قفزات نوعية في الفهم – مثل الانتقال من فيزياء نيوتن إلى نظرية النسبية. هذا ليس مجرد تقدم تدريجي، بل إعادة تصور جذرية لرؤيتنا للعالم، تغيير paradigm على نطاق هائل.حيث أن كاسيرر قد استند إلى المنهج الترنسندنتالي، ويشيد بالثورة الكوبرنيكية التي أنجزها كانط في نمط التفكير، ويستلهم روحها النقدية من أجل تشييد فلسفة الثقافة والتفكير في إشكالية فهم الإنسان وأشكاله الرمزية.(مخوخ،2017،ص.104).

في الختام، لا يقدم كاسيرر الحلول المؤقتة والتحولات الجذرية كبدائل متعارضة، بل يراها جوانب متشابكة لعملية واحدة مستمرة. فالواقع يعاد تشكيله باستمرار من خلاّ تفاعل الأشكال الرمزية، حيث يقدم كل منها حلو الا مؤقتة تم 'هد الطريق

لاختراقات تحويلية محتملة. المشكلة، إذن، ليست لغ ازا يتطلب ح الً نهائيا، بل مجا الا ديناميكيا للإبداع الإنساني. إنه عملية دائمة الحدوث، حالة من التحول المستمر، وليس وجهة ثابتة.

الفصل الثاني

الأشكال الرمزية وصياغة التجربة الإنسانية منظور

كاسيريري

الفصل الثاني: الأشكال الرمزية وصياغة التجربة الإنسانية - منظور كاسيريري

المبحث الأول: الأشكال الرمزية كأدوات توليد المعرفة

المبحث الثاني: الديناميات الرمزية للثقافة الإنسانية

يتناول هذا الفصل الدور الأساسي للأشكال الرمزية في تشكيل المعرفة والثقافة الإنسانية، مستندًا إلى فلسفة إرنست كاسيرر الرمزية الرائدة. بينما ركّز الفصل السابق على البنية المفاهيمية لفكر كاسيرر ، الذي يذكرنا بأننا »لا نستطيع أن نستكشف طبيعة الإنسان بالطريقة التي نفهم بها طبيعة الأشياء المادية« (كاسيرر،1961،ص.35)، فإن هذا الفصل يتعمق في آليات الرموز بوصفها أدوات لصياغة واقعنا البشري، أين سنستكشف الجدلية المثيرة بين الفكر والعالم من خلال منظور كاسيرر الرمزي، وهو منظور يعيد تشكيل فهمنا للواقع باعتباره "نسيجًا رمزيًا" متعدد الطبقات، يختلف تمامًا عن الصورة الموضوعية البسيطة. وبالأحرى، يُسلط منظور كاسيرر الضوء على الدور الجوهري للأنظمة الرمزية في تشكيل المعرفة، مُؤكدًا أنها ليست انعكاسًا سلبيًا للواقع، بل أدوات نشطة تُولد عوالمها الخاصة. فالمعرفة تنشأ من تفاعل ديناميكي مع الرموز التي تشكل إدراكنا، إذ "ليست]الرموز[سوى علامات مشحونة ببداية معنى محدد فقط في إطار البنى الرمزية التي تشكل نظرياتنا" (Janz, 1997, p.74). هذه الرموز لا تُختزل إلى تمثيلات محايدة، بل هي هياكل مؤسِّسة تُحدد طبيعة الفهم البشري. فكما يشير كاسيرر، "إنهم يشغلون (الرموز) مكانات مميزة في المخطط الرياضي وكذلك في المخطط التفسيري" (Janz, 1997, p.75)، مما يُظهر دورها المزدوج في التنظيم المنطقي والتأويل الوجودي.

لم يكن كاسيرر يرى الرموز كمجرد اختصارات للحقائق القائمة مسبقًا، بل اعتبرها عناصر تأسيسية، تشكل الأسس ذاتها لفهمنا. يمكننا تشبيه الأمر كالتالي: نحن لا نكتشف العالم ببساطة، بل ننشئه بنشاط عبر الشبكة المعقدة لأنظمتنا الرمزية "اللغة، والأسطورة، والفن، والعلم" حيث يضيف كل نظام طابعه الخاص إلى الصورة الكلية. هذه الرؤية تلتقي بدهشة مع النظرة القرآنية للكون، التي ترى في الظواهر الطبيعية "آيات" تطلب التأمل والتفكيك، كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ﴾. (سورة آل عمران: 190).

فالسماء والأرض واختلاف الليل والنهار ليست مجرد وقائع فيزيائية، بل علامات رمزية تُمتحن بها قدرة العقل البشري على فك شيفرة الوجود. وهنا يلتقي كاسيرر مع الرؤية الإسلامية: فكلاهما يرى أن الواقع ليس مُعطًى سطحيًا، بل هو نصٌ مُشفَّر يتطلب قارئًا واعيًا، يمتلك أدواته الرمزية (كاللغة والعلم) وعمقه التأويلي (كالفلسفة والدين) لنسج معناه.

لا تقتصر نظرية كاسيرر على كونها تمرينًا أكاديميًا؛ بل تحمل تداعيات عميقة على فهمنا لذواتنا ولموقعنا في الكون. فهي تتحدى الواقعية الساذجة التي تفترض أن لدينا وصولًا مباشرًا وغير مشروط إلى الواقع. وبدلًا من ذلك، يكشف إطار كاسيرر عن العمليات المعقدة، وغالبًا غير الواضحة، التي من خلالها نصوغ فهمنا للعالم. الأمر يشبه محاولة تجميع أحجية أثناء ارتداء عصابة على العينين، فالصورة النهائية دائمًا ما تمر عبر أدواتنا الرمزية.

سيتناول هذا الفصل العلاقة المعقدة بين الرموز والواقع، محللًا كيف تشكل الأنظمة الرمزية المختلفة "من الاستعارات الشعرية في سونيتة لشكسبير إلى المعادلات الدقيقة في فيزياء الكم " تجاربنا وإدراكاتنا. كما سنناقش كيف تتفاعل هذه الأنظمة، أحيانًا بانسجام وأحيانًا بصراع، لتشكيل النسيج المتغير باستمرار للثقافة الإنسانية. إنها رحلة إلى جوهر الإدراك البشري، وسعي لفهم كيف نبني واقعنا، رمزًا تلو الآخر. والنتائج، كما سنرى، مذهلة بكل المقاييس: فالإنسان ليس كائنًا يَسْكُن العالم، بل هو حائكٌ ماهرٌ ينسجه من خيوط الرموز، تمامًا كما تُلمح الآية الكريمة إلى أن الكون نفسه "كتاب مفتوح" لا يُقرأ إلا بعين العقل والقلب معًا.

المبحث الأول: الأشكال الرمزية كأدوات توليد المعرفة

يُسلط منظور كاسيرر الضوء على الدور الجوهري الذي تلعبه الأنظمة الرمزية في تشكيل المعرفة. فالمعرفة ليست مجرد انعكاس سلبي وبسيط للواقع، وهذه الأنظمة ليست مجرد أدوات تعكس الواقع، بل هي "القوى التي يولد كل منها عالمه الخاص ويضعه" (كاسيرر،2009،ص.30). فالمعرفة تنشأ من تفاعل ديناميكي مستمر مع الرموز التي تشكل أسس إدراكنا. يمكننا تشبيه الأمر بنحات يعمل على تشكيل الطين – فالمادة الخام موجودة، لكن الشكل النهائي، أي "الواقع" الذي ندركه، يتحدد بالكامل بأدوات الفنان ورؤيته. في هذا السياق، تتمثل تلك الأدوات في الأنظمة الرمزية – اللغة، والرياضيات، والفن – التي لا تقوم فقط بنقل الإدراك، بل تصوغه وتشكّله فعليًا. إذ تؤكد فلسفته أن "الأشكال الرمزية ليست محاكاة للواقع، بل هي الأعضاء المكونة له، مادام بفضلها وحدها، ومن طريقها، يصير أي شيء واقعي موضوعًا للفهم العقلي، وهكذا يصبح مرئيًا لنا في ذاته" (كاسيرر،2009،ص.30). ، هذا التشبيه يوضح أن الواقع لا يُكتشف بمعزل عن الأدوات الرمزية، بل يُبنى من خلالها.

ليست هذه الأنظمة مجرد حاويات محايدة، بل هي الهياكل الأساسية التي تُبنى عليها فهمنا للعالم.وهنا يتجلى قول مونتين: »أكبر شيء في هذا العالم هو أن تعرف كيف تكون« (كاسيرر،1961،ص.29)، إذ إن عملية "الكون" الإنساني مرتبطة عضوياً بقدرته على تشكيل ذاته عبر التفاعل مع الأنظمة الرمزية. ونتيجة لذلك، فإن ما نعتبره "واقعًا" يصبح، في جوهره، نتاجًا ثقافيًا، مصنوعًا بعناية ومتأثرًا بعمق بالعدسة التي ننظر من خلالها إليه، وليس حقيقة طبيعية نقية وغير مشوبة بالتأويل. إن الطابع الذاتي لهذه العملية بالغ الأهمية. فالمعرفة لا تتعلق بالكشف عن حقيقة موضوعية موجودة مسبقًا في الكون، بل تتعلق بعملية نشطة لصناعة المعنى، وهي عملية فردية مثل بصمة الإصبع، لكنها في الوقت نفسه متأثرة بعمق بالأطر الرمزية المشتركة داخل ثقافتنا. وبالتالي، فإن فعل المعرفة ذاته هو فعل إبداعي، يمثل تفاوضًا مستمرًا بين العوالم الرمزية الداخلية لدينا والعالم الخارجي.

المطلب الأول: الرمزية في الحقلين العلمي والفلسفي

على الرغم من أن العلم والفلسفة يبدوان مجالين متباعدين، إلا أنهما مرتبطان بعمق عبر الخيط المشترك للرمزية. في العلم، لا تُعتبر الرموز الرياضية والفيزيائية مجرد تمثيلات، بل هي اللبنات الأساسية التي يقوم عليها الفهم العلمي، وأنها أدواتٍ لا تُكتفى بوصف الظواهر، بل تُعيد تعريفها كأنظمة قابلة للقياس. فالمعادلات العلمية ليست مجرد تمثيلات، بل هي "ديناميكيات البناءات النظرية" التي تبحث عن أسباب استقرارها وتقييد التعسف في توليدها (Janz, 1997, p.75). في الجزء الثالث من فلسفة الأشكال الرمزية، يوضح كاسيرر بشكل رائع أن المعادلة العلمية ليست مجرد وصف كمي للظواهر، بل هي أكثر من ذلك بكثير – إنها تعيد تعريف الطبيعة ذاتها كنظام يمكن التنبؤ به قائم على السببية. وهكذا، يصبح العلم لغة رمزية لا تُفرض على الواقع فحسب، بل تشكّل فهمنا له، مما يجعل "الحقيقة العلمية" بناءً دقيقًا وليس مجرد كشف مباشر عن ماهيات مطلقة. إنه أشبه بعملية نحت للواقع باستخدام المعادلات، حيث يتم نحت المجهول لكشف كون منظم يمكن فهمه.

أما في الفلسفة، فتتمثل قوة الرموز في قدرتها على ردم الهوة بين التجربة الحسية والمفاهيم المجردة. حتى أعظم المفاهيم الفلسفية، مثل "الوجود" أو "الزمن"، تُبنى من خلال الاستعارات اللغوية والأطر المنطقية التي تحدد كيفية إدراكنا لها. يمكننا تشبيه ذلك بسقالات لغوية تدعم ثِقل الأفكار العميقة.هنا يتقاطع كاسيرر مع تحليله للأسطورة، حيث يرى أنها "الظل المعتم الذي تلقيه اللغة على الفكر" (كاسيرر،2009،ص.32)، لكنه يرفض اختزالها إلى مجرد وهم، مؤكدًا أن هذا الظل "يظهر في هالة نوره الخاص"(كاسيرر،2009،ص.32)و أن الواقع لا يُختزل إلى "شيء في ذاته"، بل يُفهم عبر الإدراكات التي تُعتبر

"علامات على الواقع" (Janz, 1997, p.74)، مما يُمكّن الفلسفة من تجاوز الميتافيزيقا التقليدية.هذه الثنائية بين الإبهام والإيضاح تُظهر كيف تُعيد الرموز تشكيل حدود الفهم البشري في كلا المجالين. وهكذا، تتحول الفلسفة إلى مسعى تأويلي، عملية دقيقة لتفكيك الرموز السائدة التي تشكل تفكيرنا، وكشف البنى الرمزية الخفية التي تؤثر جذريًا في رؤيتنا للعالم. يشبه الأمر تقشير طبقات البصلة، حيث تكشف كل طبقة عن فهم أعمق وأكثر دقة لإدراكنا وللواقع نفسه. فكاسيرر يوجه تفكيره إلى الثقافة واشكالاتها استنادا إلى منظور فلسفي للثقافة، مبينا أن المهمة الملقاة على عاتق فلسفة الثقافة تكمن في تحديد الغاية الموحدة وإبرازها بين الموضوعات والمجالات الثقافية المتعددة والمتنوعة (اللغة، الاسطورة ، الدين ، الفن ، التاريخ ،العلم ...الخ).(مخوخ،2017،ص.120).

النتائج المترتبة على ذلك بعيدة المدى: في العلم، يحدد الإطار الرمزي الأسئلة التي نطرحها والإجابات التي نجدها، مما قد يؤدي إلى نوع من "النبوءة ذاتية التحقق". أما فلسفيًا، فإن إدراك الطابع الرمزي لفهمنا يجبرنا على مواجهة الحدود المتأصلة في أطرنا الإدراكية، مما يحفزنا على إعادة تقييم افتراضاتنا ومعتقداتنا باستمرار. إنها عملية دائمة من التساؤل والتنقيح لفهمنا للعالم، أشبه برقصة مستمرة بين الرمز والمعنى. في النهاية، يسلط المجالان الضوء على الدور الجوهري للرموز في تشكيل إدراكنا للكون، من أصغر الجسيمات دون الذرية إلى أعظم الأسئلة الكونية. فالرموز، في جوهرها، تصبح العدسات التي نرى من خلالها الواقع. حيث يقول كاسيرر:»...تكمن مهمة الفلسفة دائما في جعل الوظائف المنطقية للمعرفة تبرز من جديد، على أساس مجموعة تاريخية ملموسة من المفاهيم والمبادئ العلمية المحددة... ، ومفهوم تاريخ العلم يحتوي سلفا على فكرة المحافظة على بنية منطقية كلية، من خلال كل تعاقب للانساق المفهومية الجزئية «. (مخوخ،2017،ص.109).

ان التأمل في حضور الرمزية داخل الحقلين العلمي والفلسفي يكشف عن بنية معرفية عميقة تنظم علاقتنا بالواقع، وتحدد إلى حد بعيد كيفية إدراكنا له وتمثلنا لمعناه. فليست الرموز في العلم مجرد أدوات محايدة للتعبير أو التوصيف، بل هي آليات توليد للمعرفة، تصوغ الظواهر وتعيد تشكيلها ضمن أنظمة قابلة للقياس والتفسير، بما يجعل من الحقيقة العلمية بناءً رمزيًا مركبًا لا ينفصل عن منطق النمذجة والافتراض. وفي الفلسفة، تكتسب الرمزية طابعًا تأويليًا يُعيد تشكيل المفاهيم الكبرى التي يقوم عليها الفكر، من خلال الاستعارة واللغة والمنطق، ما يجعل الفهم الفلسفي في ذاته ضربًا من إعادة تركيب التجربة الإنسانية وفق بنيات رمزية تتجاوز الإدراك الحسي الخام.

ومن خلال منظور كاسيرر، يصبح الإنسان كائنًا رمزيًا بامتياز، لا يواجه الواقع كما هو، بل كما يتمثله ويعيد تأويله من خلال أنساق رمزية تتعدد بتعدد الحقول الثقافية والمعرفية: اللغة، الأسطورة، الدين، الفن، العلم، والفلسفة. وعليه، فإن الرمزية لا تُفهم بوصفها طبقة إضافية تُضاف إلى الواقع، بل بوصفها البنية التي تجعل الواقع قابلًا لأن يُفهم ويُعاش. وبهذا المعنى، فإن الحقيقة – سواء كانت علمية أو فلسفية – ليست معطى سابقًا على الفهم، بل نتيجة لعملية رمزية نشطة تُمارس فيها الذات فعل التنظيم والتفسير.

إن هذا الطابع البنائي للرمزية يجعل منها مركزًا لإعادة التفكير في العلاقة بين الذات والعالم، بين الفكر والواقع، حيث تغدو المعرفة شكلًا من أشكال الإبداع الرمزي الذي لا يكشف عن جوهر نهائي، بل يفتح أفقًا دائمًا من المعنى والتأويل. وبذلك، يتجاوز كاسيرر النزعة الوضعية الصارمة التي ترد الحقيقة إلى المطابقة، كما يتجاوز النزعة المثالية التي تعلي من شأن الذهن على حساب التجربة، ليرسم تصورًا ديناميًا للمعرفة بوصفها تفاعلًا مستمرًا بين الإنسان ورموزه. في النهاية، لا يمكن فصل الرمزية عن جوهر الكينونة الإنسانية. إنها ليست فقط وسيلة لفهم العالم، بل هي البنية التي بفضلها يُصبح العالم قابلًا للفهم أصلًا. ولهذا، فإن دراسة الرمزية في الحقلين العلمي والفلسفي لا تكشف فقط عن طبيعة المعرفة، بل

أيضًا عن طبيعة الإنسان ذاته ككائن لا يعيش في الواقع مباشرة، بل في شبكات رمزية ينظم بها هذا الواقع ويمنحه المعنى. من هنا، تغدو الرمزية ليس فقط أداة معرفية، بل مشروعًا أنطولوجيًا يكشف عن عمق العلاقة بين الفكر، والثقافة، والعالم.

المطلب الثاني: تعددية الحقيقة الرمزية

ينتقد كاسيرر بشكل جذري فكرة "الحقيقة" الأحادية والمطلقة، مؤكداً بأن كل نظام رمزي يولد نوعه الخاص من الحقيقة، والتي تُقيَّم وفقاً لمنطقه الداخلي ومعاييره الخاصة. فالحقيقة العلمية، التي تقوم على السببية والأدلة التجريبية، لا تلغي بأي حال من الأحوال الحقيقة الجمالية التي نجدها في الفن، ولا الحقيقة المتجاوزة التي تتجلى في المعتقدات الدينية. هذه التعددية تُظهر تعقيد الوجود الإنساني، حيث "تمتنع]الأنظمة الرمزية[عن إسقاط مفاهيمها على الواقع" (Janz, 1997, p.75)، لكنها تبحث عن أسباب استقرارها الذاتي.

إنّ هذا التوجه لا يمكن فصله عن التحول النقدي في فلسفة كاسيرر، الذي لم يعد يتعامل مع العقل بوصفه مرآة عاكسة لحقيقة مفترضة، بل بوصفه فاعلًا رمزياً يبدع أنماطًا متعددة من الحقيقة، تختلف باختلاف السياقات الرمزية التي تتولد منها. وفي هذا السياق، يشير مخوخ (2017) إلى أنّ كاسيرر لا يكتفي بنقد العقل الخالص، بل ينتقل إلى نقد الهيرمينوطيقا الرمزية ذاتها، أي كيف تتشكل الحقيقة داخل الثقافة بوصفها بناءً دلاليًا متعدد الطبقات، مما يضع "المعنى" في مركز النظرية المعرفية لا "الجوهر الثابت" كما في الأنظمة الميتافيزيقية التقليدية (مخوخ، 2017، ص. 156).

بذلك، تصبح الحقيقة عمليةً ديناميكيةً تعكس تفاعل الإنسان مع العالم عبر أدوات رمزية متعددة. بمعنى أن الحقيقة العلمية تتعايش مع الحقيقة الجمالية والدينية دون تناقض، لأنها تعكس "التعقيد الجوهري للوجود الإنساني" الذي يُعتبر "أصلًا لا معقولًا يستعصي على كل تفسير" (كاسيرر، 2009، ص. 23). ومن هذا المنظور، فإنّ نقد كاسيرر للهيرمينوطيقا لا يعني تفكيكها، بل الانفتاح على طابعها التعددي المنتج للمعنى، إذ "لا تبنى الثقافة على منطق واحد بل على أنظمة رمزية مستقلة نسبياً، تتفاعل دون أن تذوب في نسق شمولي" (مخوخ، 2017، ص. 167).

هذه التعددية ليست ضعفًا، بل دليلًا على قدرة الإنسان على خلق عوالم رمزية متوازية تُثري تجربته الوجودية. أي أن هذه "الحقائق"، كما يصر كاسيرر، توجد في عوالم موازية من المعنى، وتعكس الطبيعة المتعددة الأوجه، بل والمتحولة، للنشاط الرمزي البشري. يمكن تشبيه ذلك بـ"جوهرة متعددة الأوجه"، كل وجه منها يكشف حقيقة مختلفة، لكنها جميعها متساوية في قيمتها.

فعلى سبيل المثال، ينتج الفن حقيقة وجودية، حيث يقدم انخراطاً عميقاً مع الكينونة من خلال تجسيد اللامحدود وغير القابل للوصف ضمن حدود العمل الفني نفسه. لوحة رائعة لغروب الشمس لا "تثبت" شيئاً علمياً، لكنها تعبر بشكل قوي عن تجربة الإنسان في مواجهة الدهشة والرهبة. وبالمثل، يخلق الدين حقيقة غائية، تمنح الإحساس بالغاية والمعنى الأسمى، من خلال رموزه الطقسية وسردياته. قد تفتقر الطقوس المقدسة لدى أي مجتمع ديني إلى التحقق التجريبي، لكنها تقدم إطاراً لفهم الوجود وتكوين إحساس عميق بالمجتمع والانتماء المشترك.

في جوهر الأمر، يقوم كاسيرر بإعادة صياغة مفهوم الحقيقة من الأساس. لم تعد الحقيقة جوهراً ثابتاً وغير متغير، أو مثالًا أفلاطونياً منقوشاً على الحجر. بل على العكس، يراها كعملية ديناميكية وأداءً رمزياً يعكس تفاعل الفرد مع العالم من خلال أنظمة تفسيرية متعددة. يوضح هذا المنظور الثوري ببلاغة في عمله الرائد مقال في الإنسان، وهو منظور لا يزال يجد صدى عميقاً لدى الباحثين عبر مختلف التخصصات. إنه منظور يبدو لي محرراً للغاية وعميق البصيرة، إذ يدعونا إلى تقدير غنى

الفهم البشري بدلًا من البحث عن تفسير واحد اختزالي للوجود. فتنوع الحقائق الرمزية، في نظر كاسيرر، ليس ضعفاً، بل شهادة على الإبداع اللامحدود والقدرة التعبيرية الهائلة للروح البشرية.

إنّ تحليل موقف كاسيرر من الحقيقة يكشف عن تحول عميق في فهمنا لطبيعة المعرفة الإنسانية، حيث تتبدّد الصورة التقليدية التي تربط "الحقيقة" بالمطلق والثبات، لصالح تصور تعددي يرى الحقيقة بوصفها بنية رمزية متغيرة تنشأ ضمن أنظمة مستقلة، لكل منها منطقه الداخلي وأدواته التفسيرية. فالحقيقة، وفق هذا المنظور، لا تُستخلص من تطابق الفكر مع الواقع بقدر ما تُبنى من خلال أشكال رمزية تتوسط العلاقة بين الإنسان والعالم، وتشكل طريقة إدراكه وتفسيره للوجود. إن هذا التعدد لا يعكس تشتتاً أو فوضى في التفكير، بل هو تعبير عن ثراء التجربة الإنسانية، التي لا يمكن اختزالها في منطق واحد أو رؤية أحادية. فالحقيقة في سياق التجربة الجمالية تختلف عن حقيقتها في السياق العلمي أو الديني، لا لأن أحدها أكثر صدقاً أو دقة من الآخر، بل لأن لكل منها وظيفة رمزية خاصة، ولغة دلالية مختلفة، وآفاقًا معرفية متباينة. فالفن يعبّر عن اللامرئي والباطني من خلال الصورة، والدين يمنح الإحساس بالمعنى الأسمى من خلال الطقس والسرد، في حين يسعى العلم إلى فهم العلاقات السببية عبر المفاهيم والفرضيات.

ومن هنا يتّضح أن كاسيرر لا يسعى إلى إلغاء مفهوم الحقيقة، بل إلى إعادة صياغته على نحو يتلاءم مع الطابع الرمزي والثقافي للوجود الإنساني. فالحقيقة ليست غاية نهائية تُكتشف، بل هي عملية مستمرة من البناء الرمزي، تتطور ضمن شروط تاريخية وثقافية ومعرفية متغيرة. إنها ليست "ما هو كائن" بشكل مطلق، بل "ما يُفهم ويُفسّر" داخل سياق رمزي معين. ولهذا، فإن الحقيقة ليست واحدة بل متعددة، ليست جامدة بل حركية، ليست مجردة بل مجسّدة في تجارب الإنسان اليومية. وتكمن فرادة هذا الطرح في أنه لا يكتفي بنقد المفهوم التقليدي للحقيقة، بل يعيد الاعتبار لكل أشكال التعبير الرمزي باعتبارها مصادر حقيقية للمعرفة والمعنى. فلا يجوز تفضيل الحقيقة العلمية على الحقيقة الجمالية أو الدينية فقط لأن الأولى قابلة للقياس والتجريب؛ فلكل منها منطقها الخاص، وشرعيتها الرمزية، ودورها الحيوي في تشكيل وعي الإنسان لذاته ولمحيطه.
إن فلسفة كاسيرر تُدخلنا بذلك إلى أفق جديد من التفكير، يتجاوز النزعة الوضعية التي تحتكر الحقيقة في العلم، كما يتجاوز الرؤى الميتافيزيقية التي تربط الحقيقة بمطلق متعال. إنها تدعونا إلى فهم الحقيقة كمشروع إنساني خالص، يتطور مع تطور الرموز، ويتغير مع تغير الثقافة. ولعل هذا ما يجعل من التعدد الرمزي للحقيقة ضرورة معرفية، وليس مجرد خيار فلسفي.

في النهاية، فإن تعددية الحقيقة الرمزية عند كاسيرر لا تعني النسبية المطلقة أو انهيار المعايير، بل تعني الاعتراف بوجود مستويات مختلفة من الحقيقة، تُبنى انطلاقاً من حاجات الإنسان وتجاربه، وتُفهم في ضوء سياقاتها الرمزية الخاصة. وهذه التعددية، في جوهرها، ليست علامة على الضعف أو الارتباك، بل تعبير عن الطاقة الإبداعية الهائلة للعقل الإنساني، وعن القدرة الرمزية المدهشة التي يمتلكها في تشكيل الواقع، لا كما هو، بل كما يُفهم ويُعاش ويُعبَّر عنه.

المبحث الثاني: الديناميات الرمزية للثقافة الإنسانية

تقدم فلسفة إرنست كاسيرر رؤيةً ثقافيةً ديناميكيةً تتبدى في قوله تعالى: }إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوۡمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمۡ{ (سورة الرعد:11)، حيث تُفهم الثقافة هنا كنسيج حيوي يتشكّل عبر تفاعل أنظمة رمزية متعددة. فليست الثقافة بنيةً جامدةً، بل حقلًا ديناميكيًا تُعاد تشكيله باستمرار عبر صراع التمثيلات الرمزية وتفاوضها، يشبهه بعض الباحثين بسوق فكرية تتنازع فيها الرموز الثقافية على الهيمنة، تعلو بعضها وتضمحل أخرى بتأثير تحولات التاريخ والسلطة.

وبمعنى أكثر وضوحا ، "الثقافة"هي نسيجٌ رمزيٌّ ديناميكي تُعيد الأنظمة الرمزية تشكيله باستمرار. فالتاريخ البشري هو تاريخ صراع الرموز وتفاوضها، حيث "تتشكل النظريات عبر البنى الرمزية التي لا تُقيّد التعسف في توليد ديناميكياتها، بل تبحث عن أسباب استقرارها" (Janz, 1997, p.75). هذه الديناميكية تُشبه التحولات الجيولوجية، حيث تحمل الرموز بصمات التحولات المجتمعية، من الأسطورة إلى العلم، مُشكِّلةً وعيًا جمعيًا متجددًا.

يُظهر التحليل الأنثروبولوجي لتطور الرموز الدينية - من النقوش البدائية إلى العمارة المقدسة - كيف تعكس الأنظمة الرمزية تحولاتٍ جيولوجيةً في البنى التحتية للمجتمعات. فكما تسجّل الصخور طبقات التغيرات الجيولوجية، تحمل الرموز الثقافية بصمات التحولات الاقتصادية وإعادة التشكيلات السياسية والطفرات التكنولوجية. هذا التفاعل الجدلي بين البنى الرمزية والواقع المادي يذكرنا بتشبيه القرآن للتغيير المجتمعي كتحول داخلي ينعكس خارجيًا.

وتكشف الدراسات السيميائية أن هيمنة أنظمة رمزية معينة ليست ظاهرةً عشوائية، بل نتاج تفاعل معقد بين شبكات القوة والمعرفة. فكما تُظهر الآيَة الكريمة أن التغيير يبدأ من الذات الجمعية، تُبرز نظرية كاسيرر كيف تتعزز الرموز المهيمنة عبر آليات السلطة لتصير دعاماتٍ للأنظمة الثقافية الراسخة. ولا يتم كسر هذه الهيمنة الرمزية إلا عبر زلازل فكرية تعيد تشكيل الوعي الجمعي، مماثلةً للتحولات الجذرية التي تشير إليها الآيَة القرآنية.

من هذا المنظور التكاملي بين الفلسفة والرؤية القرآنية، تظهر الثقافة كفضاءٍ ديناميكي تُعاد فيه صياغة السرديات عبر حوار جدلي بين الرمز والواقع. فالتغيير الثقافي - كما يؤكد كاسيرر ويلمح إليه النص القرآني - عمليةٌ داخلية المنشأ، تنبثق من التفاعل الحيوي بين أنظمة التمثيل الرمزي والتحولات البنيوية في المجتمع. هذا التزاوج بين الرؤية الفلسفية والحكمة القرآنية يقدم إطارًا تفسيريًا ثريًا لفهم تعقيدات النسيج الحضاري الإنساني وتطوراته التاريخية.

المطلب الأول: اللغة كأداة رمزية للتواصل والمعرفة

تعمل اللغة، في جوهرها، كنظام رمزي جوهري، ينظم التجربة البشرية بعناية إلى هياكل مفاهيمية قابلة للمشاركة. يجادل إرنست كاسيرر، في عمله البارز اللغة والأسطورة، بأن اللغة تتجاوز مجرد نقل المعلومات "أداة تواصل" ؛ فهي في الأساس تحدد طبيعة الفكر نفسه.إذ يؤكد أن »كل دلالة لغوية هي دلالة غامضة في جوهرها« (كاسيرر،2009،ص.23).هذا الغموض ليس ضعفًا، بل تعبير عن تعقيد الوجود الإنساني الذي »يبدو أصله لا معقولًا يستعصي على كل تفسير« (كاسيرر،2009،ص.23). إنها ليست مجرد انعكاس للواقع، فالمفردات والتراكيب النحوية التي نستخدمها تعمل على بناء نظام دلالي معقد ومتشابك. يمكننا تصورها كنسيج محكم، حيث تساهم كل كلمة وعبارة كخيط في التصميم الكلي.

إذن، فاللغة ليست أداةً تواصليةً فحسب، بل نظامًا رمزيًا يُشكِّل الهيكل المعرفي للإنسان. فالكلمات، كما يرى كاسيرر، "علامات مشحونة بمعنى محدد" (Janz, 1997, p.74)، تُنظِّم التجربة إلى مفاهيم قابلة للمشاركة. هذه العملية لا تنفصل

عن الديناميكية الثقافية، حيث تتفاعل اللغة مع الأنظمة الرمزية الأخرى (كالفن والدين) لتوليد معانٍ متعددة الطبقات، مما يُعمِّق الفجوة بين الواقع المُدرَك والواقع المادي.

ومع ذلك، فإن كاسيرر يتجنب بذكاء اختزال اللغة إلى نظام مغلق أو أحادي البعد. بل إنه يؤكد على تفاعلها الديناميكي مع الأشكال الرمزية الأخرى – كالفن والدين وحتى الرياضيات – مما يمنحها مرونة لا مثيل لها في التعبير عن تعقيدات الوجود البشري. خذ، على سبيل المثال، قوة اللغة الشعرية. فالقصيدة الواحدة يمكنها أن تمزج بسلاسة بين الوظائف الجمالية والتواصلية، فتعمل كجسر يربط بين التجربة الذاتية والواقع الموضوعي. إنها مثال قوي على قدرة اللغة التحويلية، حيث تتجاوز مجرد التواصل لتصبح وسيلة للاستكشاف العاطفي والفكري العميق. الصور التي تستحضرها، والمشاعر التي تثيرها – ليست مجرد نتائج عرضية، بل مكونات أساسية للقوة الرمزية للغة ذاتها. ومنه فاللغة ليست أداة تواصل فحسب، بل هي نظام رمزي يحدد طبيعة الفكر. يوضح كاسيرر أن "الإنسان لا يعيش مع موضوعاته إلا بقدر ما يعيش في هذه الأشكال" (كاسيرر،2009،ص.33) ، مما يعني أن اللغة تشكل الهيكل الذي تُفهم من خلاله التجارب. فالكلمات ليست حاويات محايدة، بل نوافذ نرى منها العالم، وهي تشبه "النسيج المحكم" الذي يربط الذات بالموضوع.

وهذا بعيد كل البعد عن مجرد نقل البيانات؛ إنه عملية خلق للمعنى، ونسج لسرد يلقى صدى عميقًا في الروح الإنسانية. إن لهذه الفكرة دلالات عميقة، فهي لا تؤثر فقط على كيفية تواصلنا، بل تمتد إلى طريقة إدراكنا للعالم وفهمنا له. إنها علاقة تكاملية، ورقصة مستمرة بين التعبير والاستيعاب. ومن هذا المنظور، فإن اللغة ليست مجرد أداة، بل هي الهيكل الأساسي الذي يُبنى عليه فهمنا للكون.

من خلال تحليل التصور الكاسيريري للغة، يتضح أن اللغة ليست مجرد وسيلة للتخاطب أو قناة لنقل المعلومات، بل هي في صميم البنية الرمزية التي تشكّل الوعي الإنساني ذاته. فهي الوسيط الذي من خلاله يتم تنظيم التجربة البشرية، وتأطير الواقع، وبناء المعنى. وبقدر ما تُستخدم اللغة في التعبير، فهي تُستخدم في الإدراك والتفسير، إذ لا تكتفي بعكس العالم، بل تسهم في بنائه وتكوينه من خلال شبكة دلالية معقدة تشكّل نسيجًا مفهوميًا واسعًا يمتد بين الذات والموضوع. إن رؤية كاسيرر للغة تتجاوز كل المقاربات الأداتية أو السلوكية، فهي ليست مجرد إشارات صوتية أو علامات مرجعية، بل هي شكل رمزي مستقل، له منطقه الخاص وفاعليته النوعية في صياغة الفكر. فكل فعل لغوي، مهما بدا بسيطًا، ينطوي على عملية رمزية عميقة: تحويل المعطى الحسي أو الشعوري إلى صورة ذهنية، ثم إلى لفظ محمّل بإمكانات تأويلية لا نهائية. وهذا ما يفسر إصرار كاسيرر على أن كل دلالة لغوية "غامضة في جوهرها"، لا لأن اللغة عاجزة، بل لأنها تحوي كثافة رمزية تفتح المعنى على أفق دائم من الانزياح والتعدد.

وفي هذا السياق، لا يمكن فصل اللغة عن بقية الأشكال الرمزية الأخرى، كالدين والفن والأسطورة والعلم؛ فهي تتفاعل معها، وتتقاطع معها، وتُعيد إنتاجها في كثير من الأحيان. فالكلمة الشعرية، مثلًا، تلتقي مع الرمز الديني في طابعها الاستعاري، وتتقاطع مع التفكير الفلسفي في طابعها المجرد، بل وحتى مع التعبير الرياضي في دقتها الرمزية. وهذا ما يمنح اللغة مرونة فريدة ومكانة مركزية في النسق الرمزي للثقافة البشرية.

كما أن اللغة، عند كاسيرر، هي الأفق الذي تتشكل فيه الذات الإنسانية. فالفرد لا يفكر "خارج" اللغة، بل "فيها" ومن خلالها، وهي ليست مجرد وعاء محايد للفكر، بل هي البنية التي تشكّل الفكر ذاته. فالكلمات لا تعكس المعنى فقط، بل تُنتجه، وتُوجّهه، وتُعيد تشكيله ضمن سياقات ثقافية وتاريخية متغيرة. وهنا تبرز أهمية اللغة كوسيط إبستمولوجي وأنطولوجي في آن واحد؛ فهي وسيلتنا لفهم الواقع، وأداتنا في الحضور داخله.

وعلى هذا الأساس، فإن اللغة لا تُمثّل أداة عرضية في التجربة الإنسانية، بل هي أحد الشروط الضرورية لإمكان هذه التجربة. إنها لا تعبر فقط عن الواقع، بل تُعيد تشكيله وفق رموز يتوارثها الإنسان ويُعيد إنتاجها ضمن نُسُقٍ جديدة ومفتوحة. ومن هنا تكتسب اللغة أهميتها الوجودية: إذ بفضلها يتحول الإنسان من كائن بيولوجي إلى كائن رمزي، من مجرد مستهلك للمعلومة إلى منتج للمعنى. ولعل القيمة الكبرى لفلسفة كاسيرر تكمن في أنها أعادت للغة مكانتها المركزية، لا بوصفها مجرد أداة للتخاطب، بل بوصفها بنية رمزية فاعلة في تشكّل الوعي والمعرفة والثقافة. فكلما تعمقنا في فهم اللغة كنسق رمزي، كلما اقتربنا من فهم الإنسان ذاته، لا بوصفه كائنًا ناطقًا فحسب، بل ككائن يصنع الرموز، ويؤمن بها، ويعيش من خلالها. وهكذا، تصبح اللغة عند كاسيرر أكثر من مجرد وسيلة: إنها الوعاء الذي تُصاغ فيه الذات، والمرآة التي يُبنى فيها العالم، والنسيج الذي تُحاك فيه المعاني، والنافذة التي نطل منها على أنفسنا والكون من حولنا.

المطلب الثاني: الفن كتجسيد للحرية الرمزية

يركز تحليل كاسيرر العميق للفن على قدرته المذهلة في تحرير الذات من قيود الإدراك الحسي. لكن هذه الحرية لا تنفصل عن الجذور الأسطورية للفكر الإنساني. فكما يوضح في تحليله للأسطورة: »الأسطورة ليست تحويل التاريخ إلى حكاية خرافية، ولا هي حكاية تُقبل كتاريخ؛ ومن المؤكد أنها لا تنبع مباشرةً من التأمل في أشكال الطبيعة وقواها الكبرى«(كاسيرر،2009،ص.23). بل هي تعبير عن حاجة الإنسان إلى نسج سرديات تعكس الصراع بين الوهم والحقيقة.

وهنا يلتقي الفن بالأسطورة في كونهما »عالمًا وهميًا« ضروريًا لفهم الذات، إذ »نجفل جميعًا من نور الحقيقة الساطعة...والميثولوجيا« (كاسيرر،2009،ص25).

هنا يرى كاسيرر أن الفن لا يقتصر على محاكاة الواقع، بل يعيد تخيله عبر الرموز الجمالية. فالأسطورة تُظهر "خداع الذات الضروري الأصلي في العقل"(كاسيرر،2009، ص.26)، و الفن يكشف عن التوتر بين الواقع والمتخيل،(بعبارة أخرى ، يحول المحدود "التجربة الحسية" إلى تعبيرات عن اللامحدود "المعنى الوجودي"). هذه العملية تُظهر أن "الرموز تشغل مكانات مميزة في المخطط التفسيري" (Janz, 1997, p.75)، حيث تُعيد تشكيل الإدراك عبر العدسة الجمالية. وتتحرر من قيود الإدراك الحسي، وتخلق عالمًا و واقعا متخيلا حتميا ضروريا لفك وسبر رموز النفس والذات، حيث تُترجم اللامحدودية إلى رموز حسية.يمكن تشبيهه بخيميائي ماهر يحوّل المعادن العادية إلى ذهب متلألئ – حيث يأخذ الفنان المواد الخام للتجربة الحسية ويعيد تشكيلها إلى شيء جديد تمامًا، إلى عالم رمزي يفيض بالإمكانات. تتجلى هذه العملية من خلال توظيف الرموز الجمالية، محوّلةً المحدود، الذي يبدو مقيدًا، إلى تعبيرات قوية عن اللامحدود.

هذا المنظور، المتجذر بعمق في الفلسفة الكانطية، يرى الجمال كنوع من "الغائية بلا غاية"، وهي عبارة تبدو لي دائمًا متناقضة بشكل رائع. لكن كاسيرر يضيف بُعدًا حاسمًا: البعد الرمزي. فالفن، في نظره، يولد فهمًا تعاطفيًا، معرفة حسية تكمل الفهم العلمي الأكثر عقلانية للعالم وتثريه. لا يتعلق الأمر فقط بالإدراك العقلي، بل بالشعور بالحقيقة في أعماق الوجود، بتجربة صدى عميق مع رؤية الفنان.

تخيل لوحة فنية: ضربات الفرشاة ليست مجرد ألوان على قماش، بل هي إشارات رمزية، تحمل كل منها وزنًا ومعنى، وتنسج نسيجًا من العواطف والأفكار. قد يستحضر لون واحد طيفًا واسعًا من المشاعر – الفرح، الحزن، الشوق – بما يتجاوز مجرد وصف بسيط لدرجته اللونية. هذه هي سحر التمثيل الرمزي، قوة الفن في تجاوز حدود اللغة والتجربة المباشرة. إنه نوع من "الخيمياء المعرفية"، يخلق المعرفة ليس من خلال الاستدلال المنطقي، بل عبر تفاعل عميق، يكاد يكون صوفيًا، مع العمل

الفني ذاته. إنه حوار صامت بين روح الفنان وروح المشاهد، حوار يمتد عبر الزمان والمكان. وهذه، في جوهرها، هي قوة الفن التحررية كما فهمها كاسيرر.

إن اعتبار الفن كتجسيد للحرية الرمزية يكشف عن أحد أعمق أبعاد الوجود الإنساني وأكثرها تعقيدًا، وهو البعد الذي يتجاوز حدود الإدراك الحسي والتمثل العقلي المباشر نحو فضاء رمزي خالص، تتشكل فيه التجربة الجمالية كوسيط لفهم الذات والعالم. فالفن، في ضوء هذا التصور، ليس فعلًا زخرفيًا أو مجرد انعكاس للواقع، بل هو عملية خلق رمزي تُعيد من خلالها الذات بناء إدراكها للواقع على نحو يتجاوز المألوف والمحسوس. وهذه القدرة على تجاوز الحسي ليست مجرد انفصال عنه، بل هي فعل تأويلي يُحول المحدود إلى تمثلات رمزية تكشف عن أبعاد غير منظورة في الوجود. يُشكل الفن، إذن، بُعدًا معرفيًا بحد ذاته، لأنه لا يُقدم معرفة تُقاس بصحتها أو خطئها، بل يُنتج نوعًا آخر من الفهم: فهم شعوري، وجداني، حدسي، يتفاعل مع الوجود لا عبر التحليل، بل عبر التذوق والتأمل. وهذا الفهم لا يقل عمقًا أو قيمة عن الفهم العقلي أو التجريبي، بل يكمله ويمنحه بعدًا إنسانيًا لا يمكن إغفاله. فالرموز التي يُنتجها الفنان ليست مجرد أدوات تعبير، بل هي مفاتيح تأويلية تحمل بداخلها كثافة من المعاني المتراكبة، تتيح للذات المتلقية أن تنفتح على قراءات جديدة لذاتها وللعالم. كما أن هذا الفهم الرمزي للفن يُبرز مدى تعقيد العلاقة بين الحقيقة والوهم، بين الواقع والمتخيل، إذ لا يعود الوهم هنا مجرّد خطأ أو تشويه، بل يصبح جزءًا من عملية الكشف عن المعنى. الفن لا يُخادع بقدر ما يُضيء، لا يُضلل بقدر ما يُحرّر؛ لأنه يُتيح للإنسان أن ينظر إلى ذاته من مسافة، وأن يُعيد صياغة تجربته الوجودية بلغة تتجاوز اللغة. وهذه المسافة الرمزية هي التي تمنح الفن طابعه التحرري، إذ تُمكّن الذات من التملّص من قيود المباشرة والانفعالية، وتنقلها إلى مستوى من الإدراك القادر على التأمل والمعاينة من موقع مختلف.

وبهذا المعنى، تتجلى الوظيفة الرمزية للفن لا فقط كأداة تواصل أو كوسيط جمالي، بل كمجال تتشكل فيه الذات من جديد، عبر الانخراط في تجربة رمزية تُعيد ترتيب علاقتها بالعالم، وتُعيد صوغ الأسئلة الكبرى حول المعنى، والوجود، والهوية. وهنا تظهر أهمية الفن بوصفه شكلًا من أشكال الوعي المتحرر، الذي لا يخضع للمنطق الأداتي أو للمقاييس الصارمة للعلم، بل يحتفي بالتعقيد، بالغموض، وبالانفتاح على ما لا يُقال.

في النهاية، يمكن القول إن الفن، في ضوء هذا التصور، يُمثل أرقى أشكال التعبير الإنساني عن الحرية. لا لأنه يُقدم أجوبة نهائية، بل لأنه يُتيح للذات أن تخلق إمكاناتها، أن تُعيد تأويل العالم، وأن تصوغ رموزها الخاصة ضمن سيرورة لا نهائية من البحث عن المعنى. وهذا ما يجعل من الفن فعلًا إنسانيًا بامتياز، لا يكتمل إلا بانفتاحه على الخَر، على المتلقي، وعلى تعددية التأويلات، مما يؤكد على دوره الجوهري في تشكيل الوعي، وفي تحريره من التكرار والاجترار إلى الإبداع والتجاوز.

المطلب الثالث: الدين كنسق رمزي للمعنى المطلق

إعادة تصوّر كاسيرر العميقة للدين كنظام رمزي تقدم منظورًا مقنعًا. فهو يرى أن الدين، بعيدًا عن كونه مجرد مستودع للخرافات، يعمل كإطار حيوي يترجم غموض الميتافيزيقا غير القابل للفهم إلى رموز يمكن إدراكها. وهنا يؤكد كاسيرر أن »الأساطير من أقدم تلك الصور، وعلى هذا فإننا نجد في التفسيرات الأسطورية الأولى للكون نظرات أنثروبولوجية بدائية تتمشى جنبًا إلى جنب مع نظرات كونية بدائية« (كاسيرر،1961،ص.32). يمكننا تشبيهه بذلك: فالضباب الكثيف للأسئلة الوجودية يصبح، من خلال الطقوس الدينية والأيقونات، طريقًا يمكن السير فيه.

وبالتالي، الدين، كنظام رمزي، يُترجم الغموض الميتافيزيقي إلى طقوسٍ وأيقوناتٍ قابلة للتأويل. فهو لا يكتفي بالحفاظ على الأساطير، بل يمنحها "شكلًا جديدًا وعمقًا جديدًا" (Janz, 1997, p.75)، كما يُوضح كاسيرر. هذه الرموز الدينية تُشكِّل إطارًا لمعالجة الأسئلة الوجودية، مما يجعل الدين جزءًا جوهريًا من النسيج الثقافي الديناميكي.

عبقرية كاسيرر تكمن في فهمه العميق لهذه الظاهرة. فهو يحذر من اختزال الدين إلى مجرد ميثولوجيا، وهو خطأ شائع. ويوضح أن الدين »لا يحطم هذه التفسيرات الأسطورية الأولى بل على العكس من ذلك احتفظ الدين بتلك النظرات الأنثروبولوجية والكونية ذات السمات الأسطورية حين منحها شكلا جديدا وعمقا جديدا« (كاسيرر،1961،ص.33). فالأمر لا يتعلق فقط بالإيمان، بل هو عملية متجذّرة في صنع المعنى، وهي عملية جوهرية للوجود الإنساني تمامًا مثل اللغة.

فالطقوس الدينية، سواء كانت احتفالات معقدة أو أفعالًا بسيطة من التعبّد—مثل إضاءة شمعة أو تقديم صلاة—ليست مجرد أدوات للحفاظ على الأساطير؛ بل هي الهيكل الذي نبني عليه علاقتنا بالمقدّس. إنها، في جوهرها، مرساة وجودية قوية في بحر من عدم اليقين، حيث تعالج الأسئلة الأساسية حول المعنى والغاية. وهذا التفاعل بين الرمزي والمقدس يُذكِّر بالحكمة القرآنية: }إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ{ (سورة الرعد: 11). ، فالتغيير في الرموز الدينية – كالتغيير في الذات الجمعية – شرطٌ لتحوُّل الوعي الإنساني.

والطقوس ليست عناصر اعتباطية؛ بل هي رموز مختارة بعناية، محمّلة بالدلالات، يتردد صداها عبر الأجيال، وتربط المجتمعات معًا في فهم مشترك لما هو غير قابل للوصف. إنها، بكلمة واحدة، ظاهرة إنسانية بامتياز.

باختصار، يقدم كاسيرر رؤية متطورة ومتعددة الأبعاد للدين، رؤية تتجنب التفسيرات التبسيطية وتحتضن تعقيد الروحانية البشرية. فهو يكشف عن الدين ليس كعقيدة جامدة، بل كنظام رمزي ديناميكي، يتكيف باستمرار ويعيد تفسير نفسه استجابةً للسعي الإنساني الدائم نحو المعنى. فالدين، كاللغة، يُعيد صياغة الغموض الميتافيزيقي إلى رموز قابلة للتأويل. هذه الجدلية المستمرة بين المقدّس والرمزي هي، وفقًا لكاسيرر، جوهر التجربة الدينية ذاتها. إنه منظور يظل ذا صلة عميقة حتى اليوم، في عصر يتسم غالبًا بالعلمنة وتفكك النظم الإيمانية.

وبهذا التصور الرمزي الذي يقدمه كاسيرر، يتجاوز الدين وضعه التقليدي كمنظومة اعتقادية أو طقسية جامدة، ليظهر كأحد أعقد أشكال التعبير الإنساني عن الحيرة والدهشة والسعي المستمر لفهم ما يتجاوز القدرة المباشرة على الإدراك. فالرموز الدينية لا تُفهم كمجرّد علامات خارجية، بل كوسائط حيوية تصوغ التجربة الروحية وتعيد تشكيلها ضمن إطار جمعي وتاريخي متجدّد. إنها ليست مجرد أدوات للتواصل مع المقدّس، بل هي تعبير عن كيفية تمثل الإنسان لذاته وعلاقته بالعالم من حوله. من هذا المنطلق، لا يكون الدين حبيس الماضي أو الأسرار الغامضة، بل فعلًا تأويليًا متواصلًا، يحاور الواقع في تحولاته ويمنح الوجود أفقًا معنويًا في وجه القلق، التفكك، والعدم.

ويكمن العمق الحقيقي لهذه الرؤية في أنها لا تضع الدين في مواجهة مع العقل أو الحداثة، بل تُعيد تأطيره بوصفه شكلًا من أشكال المعرفة الرمزية، التي وإن اختلفت عن المعرفة العقلانية أو العلمية، فإنها تكملها وتمنحها بعدًا شعوريًا ومعنويًا لا غنى عنه. فالدين، كما يصوره كاسيرر، ليس تفسيرًا للواقع الفيزيائي بقدر ما هو استجابة داخلية للمفارقات الوجودية التي يطرحها هذا الواقع ذاته: الموت، المعاناة، الزمن، الفقد، والخلود. ومن هنا تكتسب الرموز الدينية شرعيتها ليس من صدقيتها التجريبية، بل من قدرتها على حمل الأسئلة الأكثر عمقًا، ومرافقة الإنسان في بحثه المستمر عن مأوى معنوي وسط هشاشة الوجود.

ومن زاوية أخرى، فإن الدين في أبعاده الرمزية يوفر فضاءً تأويليًا مشتركًا يعيد بناء التجربة الجماعية، ويمنح المجتمعات روافع رمزية قادرة على تنظيم القيم، وضبط السلوك، وإضفاء معنى على الأحداث. إنه يفعل ذلك لا من خلال فرض منظومة واحدة من "الحقائق" بل عبر تنويع أشكال التعبير الرمزي، مما يسمح ببقاء الدين مفتوحًا على الاختلاف الثقافي واللغوي، وقادرًا على التحول دون أن يفقد وظيفته الرمزية الجوهرية. فالثبات في الدين ليس في صيغته بل في وظيفته: إنتاج المعنى، والتفاعل الحي مع الأسئلة الوجودية الكبرى.

وهكذا، نستطيع أن نفهم لماذا يربط كاسيرر الدين بمكانة مركزية في منظومة الأشكال الرمزية؛ فالدين لا يعكس فقط محاولات الإنسان لتفسير العالم، بل يكشف عن قدرته على تَمثُّل اللامرئي، وتحويله إلى تجربة ذاتية قابلة للتأويل. إنه فعل رمزي متجذر في عمق الوعي الجمعي، ومفتوح على أفق التجدد باستمرار. وبينما قد تتغير الطقوس وتتبدل الرموز، فإن الحاجة البشرية إلى أن تُجَسّد أسئلتها الكبرى في أشكال رمزية لا تنفك قائمة. فالدين، في هذا المنظور، ليس مجرد استجابة تاريخية، بل بنية رمزية معقدة تتجدد مع كل محاولة لفهم ما لا يُفهم، والإمساك بما لا يُمسَك، والسير في عتمة المجهول برفقة نور من المعنى. يكشف التحليل العميق لكاسيرر عن الأشكال الرمزية باعتبارها الركيزة الأساسية التي يُبنى عليها واقعنا، يكشف التحليل العميق لكاسيرر عن الأشكال الرمزية باعتبارها الركيزة الأساسية التي يُبنى عليها واقعنا، وهو ما يعيد إلى الأذهان قول مونتين: »أكبر شيء في هذا العالم هو أن تعرف كيف تكون« (كاسيرر،1961،ص.29). فالتفاوض بين الحقائق الرمزية المتعددة ليس مجرد تمرين فلسفي، بل هو جوهر الوجود الإنساني. وبدلًا من الجدالات الثنائية المألوفة—المثالية مقابل المادية—يقدم كاسيرر منظورًا توفيقيًا مقنعًا. فهو يرى الواقع كـ "فضاء رمزي" متعدد الأبعاد، عبارة عن نسيج حي تتداخل فيه خيوط المعرفة والممارسات الثقافية المتنوعة.

وبالتالي، يُبرز كاسيرر أن الواقع ليس مُعطًى ثابتًا، بل بناءً رمزيًا تُشكِّله أنظمة متعددة. فـ"التخلي عن 'الشيء في ذاته' لا يمنعنا، بل يشجعنا على اعتبار الإدراكات علامات على الواقع" (Janz, 1997, p.74). هذه الرؤية تفتح الباب أمام تعددية الحقائق، حيث تتعايش التفسيرات العلمية والفنية والدينية دون تناقض، إذ كل منها يعكس جانبًا من التعقيد الوجودي للإنسان. وهكذا، يصبح الواقع الإنساني نسيجًا رمزيًا متعدد الأبعاد، تُنسجه أدواتٌ ثقافيةٌ لا تنفك عن التفاعل والتحول. لكن هذا الإطار الفكري البصير يطرح معضلة مثيرة: كيف يمكن للتعددية في الأنظمة الرمزية أن تؤدي إلى تواجد حقائق متباينة، وربما متناقضة؟ فالحقيقة العلمية، على سبيل المثال، قد تبدو متعارضة تمامًا مع العقيدة الدينية أو التعبير الفني. فكيف يمكن للفلسفة أن تتصالح مع هذه الرؤى المتعارضة ظاهريًا؟

إجابة كاسيرر، وإن كانت ضمنية، إلا أنها أنيقة ومباغتة في بساطتها. فهو لا يعامل تعددية الحقائق الرمزية كمشكلة تتطلب حلًا، بل يرى فيها شهادة على التعقيد الجوهري للوجود الإنساني. فالإنسان، باعتباره حيوانًا رمزيًا(Symbolicum Animal) بامتياز، لا يقتصر على حقيقة واحدة، بل هو كائن متكيف بمهارة، قادر على التنقل بين عوالم رمزية متعددة، بل والتألق داخلها، مما يثري تجربته الحياتية. فالحقائق المتباينة – العلمية، الفنية، الدينية – ليست متناقضة، بل هي طبقات متداخلة في نسيج الوجود الإنساني، حيث "يصير أي شيء واقعي موضوعًا للفهم العقلي" (كاسيرر،2009،ص.30). عبر الرموز التي نعيش فيها ونعيد تشكيلها باستمرار. يشبه الأمر طاهيًا بارعًا يمزج التوابل المختلفة لخلق تحفة طهوية—حيث يحتفظ كل مكون بتميزه، لكنه يساهم في التناغم العام للطبق. إن غنى التجربة الإنسانية ينبع من هذا التعدد ذاته، ومن التفاعل الديناميكي بين ما يبدو متناقضًا. إن فرض سردية موحدة على هذه اللوحة المعقدة لن يؤدي إلا إلى تبسيطها الساذج، وإفقادها جوهرها العميق.

التوترات والتناقضات الظاهرة ليست عيوبًا، بل هي مكونات أساسية لوجودنا المتعدد الأوجه. إنها، إن صح التعبير، "بهارات الحياة". إن احتضان هذا التعدد الفطري، وهذه الرؤية الفسيفسائية للواقع، ليس استسلامًا للنسبوية، بل هو اعتراف بالغنى العميق والتعقيد الجوهري للحالة الإنسانية.كما يخلص كاسيرر إلى أن الرمز هو تعبير ذهني معبر عن أشكال المعرفة والوعي في عقلنا.(بوادقجي،بدوي،الداية،2020،ص10).

الفصل الثالث

نقد فلسفة الأشكال الرمزية وحدودها في تشكيل الوعي والمعرفة

الفصل الثالث: نقد فلسفة الأشكال الرمزية وحدودها في تشكيل الوعي والمعرفة

المبحث الأول: حدود الفاعلية التفسيرية للأشكال الرمزية

المبحث الثاني: النقد الفلسفي والمعرفي: بين البنيوية وما بعد الحداثة

المبحث الثالث: نحو آفاق جديدة: إعادة بناء فلسفة الرموز وبدائلها

يُشكّل هذا البحث محاولةً نقدية وجادة لفهم فلسفة إرنست كاسيرر الرمزية، لا سيما في كيفية تشكيلها لوعينا ومعارفنا. تُعتبر الرمزية، عند كاسيرر، بمثابة جسرٍ هَشّ، لكنه ضروري، بين عالم الأفكار وعالم الواقع الملموس.إذ يرى أن "الإنسان يتوافر على قوة تكوينية تتمثل في قدرته على إنتاج الرموز والدلالات، لا في نسخ الواقع" (كاسيرر،2017،ص.266). لكن كاسيرر يؤكد أن "لا يمكن للفلسفة أن تقدم لنا نظرية مرضية عن الإنسان إلا بعد أن تطور نظرية عن الدولة" (Cassirer, 1944, p. 87)، مما يُبرز الترابط الجوهري بين الفرد والسياق السياسي. فـ"طبيعة الإنسان مكتوبة بأحرف كبيرة في طبيعة الدولة" (Cassirer, 1944, p. 87)، وهو ما يستدعي توسيع نطاق التحليل ليشمل البُنى الاجتماعية. وهنا تكمن ضرورة أن "نقبل هذا الأساس الأوسع إذا أردنا تطوير نظرية عن الإنسان" (Cassirer, 1944, p. 88)، حيث تُعدُّ "التنظيمات والمنهجيات في اللغة والأساطير والدين والفن" (Cassirer, 1944, p. 88) جزءًا من "هرم المعرفة الإنسانية" (Cassirer, 1944, p. 88). لكن هذه الرموز "لا تستطيع التعبير عن جميع أنشطة الإنسان الأخرى أو استيعابها" (Cassirer, 1944, p. 88)، مما يكشف عن محدوديتها في تفسير التعقيد البشري.

إذن، هل يُمكن لهذا الجسر أن يحمل ثقلَ إجابةٍ شاملةٍ عن العلاقة المُعقّدة بين الذات والعالم؟ أم أنَّه، كما أظن، يُعاني من قصورٍ بنيويٍّ وتاريخيٍّ يُحدّ من فعاليته؟ هذا هو السؤال المحوري الذي يدفعنا قدماً في هذا التحليل.

سنُقسّم بحثنا إلى ثلاثة مباحث رئيسية مترابطة، كخيوطٍ تُنسج معًا لتُشكّل نسيجًا معرفيًا متكاملًا:

أولًا: حدود الفاعلية التفسيرية للأشكال الرمزية: هنا، سنُغوص في أعماق النظرية الكاسيررية، مُحلّلين نقاط قوتها وضعفها. فهل تستطيع هذه الأشكال الرمزية، بكلّ براعتها، استيعاب تعقيدات التجربة الإنسانية – تلك التجربة التي تُشبه بحراً هائجاً من المشاعر والأفكار المتصارعة؟ سنُناقش الثغرات النظرية والتطبيقية، مُستعينين بأمثلةٍ من الواقع، لتوضيح حدود هذه الفاعلية التفسيرية. كأن نقول: هل تستطيع الرمزية تفسير تجربة الحبّ، أو الخسارة، بعمقٍ كافٍ؟

ثانياً: النقد الفلسفي والمعرفي: في هذا الجزء، سنُواجه نظرية كاسيرر بتحدياتٍ فلسفيةٍ ومعرفيةٍ مُعاصرة. سنُناقش، على سبيل المثال، التفكيكية، التي تُشكّك في إمكانية الوصول إلى معنى ثابت، والوضعية، التي تُشدّد على الملاحظة التجريبية. سنُحاول فهم مدى قدرة نظرية كاسيرر على الصمود أمام هذه التيارات الفكرية القوية، وكيف يمكننا مواءمتها مع هذه النظريات المعاصرة، أو ربما حتى دحضها. سيكون هذا الجزء أشبه بمُناظرةٍ حامية الوطيس!

ثالثاً: آفاق التطوير والبدائل الفلسفية: في الختام، سنُحاول استشراف آفاقٍ جديدةٍ. فهل يمكن تطوير نظرية كاسيرر، أو حتى تجاوزها؟ سنُناقش بعض المسارات المحتملة، مُسترشدين بالتغيرات العلمية والثقافية المُذهلة التي شهدها العالم في العقود الأخيرة. سنُحاول اقتراح بدائلَ فلسفيةٍ، قد تُضيف بُعداً جديداً لفهم العلاقة بين الرمز، والمعنى، والواقع. لن نكتفي بالتحليل النقدي، بل سنُقدّم رؤيتنا الخاصة، رؤيةً ربما تُثير الجدل، ولكنها تُعبّر عن فهمنا المُتعمّق لهذه الفلسفة المُعقدة.

المبحث الأول: حدود الفاعلية التفسيرية للأشكال الرمزية

تُعد فلسفة إرنست كاسيرر حول "الأشكال الرمزية" محاولةً لربط خيوط الفكر بالواقع، مُستخدِمًا الرموز الثقافية كوسيط أساسي في تشكيل الوعي والمعرفة. سواء كانت هذه الرموز "لغة" أو "فنًّا" أو "دينًا"، فإنها، بحسب كاسيرر، أدواتٌ جوهرية تُولِّد المعنى، وتُشكِّل إدراك الإنسان لذاته وعالمه. غير أن هذه الرؤية التأسيسية تواجه انتقادات جوهرية تتعلق بقدرتها الفعلية على تفسير تعقيدات التجربة الإنسانية في شموليتها.

فإذا كان كاسيرر يرى أن الرموز بمثابة نُظمٍ تفسيرية شاملة تنظم الوعي وتؤطر علاقتنا بالعالم، فإن هذا التصور يستدعي تساؤلًا نقديًا: هل تنجح الرموز فعلًا في استيعاب الطبقات اللاواعية والمادية للوجود الإنساني، أم أنها تقدم قراءةً جزئيةً قد تُغفل عناصر حاسمة في تشكيل المعرفة؟

لقد بيّن كاسيرر، كما يشير مخوخ (2017)، أن "المحتوى المكون للروح لا يمكن أن ينكشف إلا من خلال إعطائه هيئة خارجية، فالشكل الفكري لا يمكن معرفته إلا بواسطة مجموع العلامات الحسية التي يستخدمها من أجل التعبير عن ذاته ومن داخلها" (مخوخ، 2017، ص. 322). يتضح هنا أن كاسيرر يُعلي من شأن الرموز بوصفها الوسيط الضروري بين الفكر والعالم، مما يطرح إشكالًا فلسفيًا حول حدود هذه الرمزية ذاتها.

أولًا: الرموز والتجربة الإنسانية: فجوات في الشمولية

تطرح فلسفة كاسيرر إشكالية مركزية: إلى أي مدى تستطيع الأشكال الرمزية تفسير التجربة الإنسانية بكل أبعادها، بما فيها تلك الأبعاد التي لا يمكن التعبير عنها بسهولة عبر الرموز؟ أليس ثمة فجوات تُبقي جوانب من التجربة طي الكتمان؟ فالتحليل النفسي، مثلًا، يكشف عن وجود طبقات لاواعية تؤثر في السلوك والمعرفة، وهي طبقات يصعب ردها إلى نظام رمزي شفاف. كما أن المادية التاريخية، وفق التصور الماركسي، تؤكد أن البنية الاقتصادية تُشكّل الأساس الذي تتفرع منه أشكال الوعي، بما في ذلك الرموز نفسها، ما يضع تصور كاسيرر تحت مجهر النقد من زاوية الطابع المادي للتجربة.

إن الرموز، وفق منظور كاسيرر، ليست مجرد أدوات تزيينية للفكر بل "أداة يأخذ بواسطتها هذا المحتوى شكلًا، باتخاذه هيئة خارجية، ومن طريقها فحسب يحصل على اكتمال معناه" (مخوخ، 2017، ص. 323). ومع ذلك، فإن هذا الاكتمال الرمزي لا يعني بالضرورة شمولية التفسير؛ إذ يبقى التساؤل قائمًا حول ما إذا كان بإمكان الرموز احتواء كامل أبعاد التجربة البشرية، خاصة ما يتصل باللاشعور والدوافع الاقتصادية والسياسية.

ثانيًا: تحديات التعددية الثقافية والتعقيد التكنولوجي

يُطرح إشكال إضافي يتعلق بمدى صلاحية نموذج كاسيرر في عالم تتداخل فيه الثقافات وتتفاعل على نحو غير مسبوق. فالتعددية الثقافية لا تسمح بفرض منظومة رمزية واحدة أو تفسير كوني موحد، بل تكشف عن تعددية رؤى العالم، كما أكد كاسيرر نفسه حين أشار إلى "تعدد رؤى العالم ذاتها" (مخوخ، 2017، ص. 322).

علاوة على ذلك، أدى التطور التكنولوجي المتسارع إلى إعادة تشكيل الرموز والأنظمة الدلالية بصورة لم تكن متصورة سابقًا. لم تعد الرموز اللغوية والفنية وحدها تحكم تشكيل المعنى، بل ظهرت أشكال رمزية رقمية عابرة للثقافات، تُحدث تحولات جذرية في مفاهيم الهوية، والانتماء، والعلاقات الاجتماعية. وفي هذا السياق، تغدو الرموز "أدوات" لا تتمتع بتركيبة أحادية أو مغلقة، بل هي "تتشكل من جوانب عدة تتكامل وتتحد في ما بينها" (مخوخ، 2017، ص. 323)، ما يعني أن تفسيرها أصبح أكثر تعقيدًا ومرونة مما تصوره كاسيرر.

في النهاية، رغم القوة التفسيرية لفلسفة الأشكال الرمزية لدى كاسيرر، فإنها لا تقدم تصورًا كليًا مكتملًا عن العلاقة بين الفكر والواقع. الرموز تُعد بحق جزءًا أساسيًا من تشكيل المعنى، لكنها لا تفسر بمفردها جميع أبعاد التجربة الإنسانية. من هنا تبرز الحاجة إلى دمج فلسفة الرموز مع أطر تحليلية أخرى، قادرة على استيعاب التعقيد المتزايد للواقع المعاصر. فالعالم، كما يتضح أكثر من أي وقت مضى، أعقد من أن يُختزل في نموذج واحد مهما بلغ من الدقة والثراء.

المطلب الأول: القدرة التفسيرية للرموز: بين الشمولية والقطيعة المعرفية

تُثير مقولة كاسيرر حول سيادة الرموز – اللغة، الفن، الدين – على كامل تجربة الوعي الإنساني جدلًا واسعًا، وتُشكِّل نقاط ضعف جوهرية في ادعائه الشامل (تساؤلات حول مدى شموليتها). فإذا كان "لا يمكن فهم الإنسان إلا من طريق فهم هذه القدرة نفسها" (كاسيرر،2017،ص.266)، فإن التحليل النفسي والمادية التاريخية يُظهران أن الرموز الواعية لا تستوعب كامل الطبقات اللاواعية أو المادية للوجود . ففرويد يُبرز دور اللاوعي برموزه المُلتوية، بينما تُجادل الماركسية بأن الرموز تُنتج ضمن شبكات سلطوية، كما يوضح فوكو في تحليله لأنظمة الخطاب. وأما "التحليل فيهدف بشكل أساسي إلى تسليط الضوء على الفئات التي توجه اللغة في بناء عالم الحدس الموضوعي" (Cassirer,1819,p.212).

إن كاسيرر يؤكد أن "كل تحديد جديد يتلقاه عالم الأشياء يعمل أيضًا عن طريق رد الفعل على تحديد عالم الذات" (Cassirer,1819,p.212)، لكن هذه العلاقة التبادلية لا تكفي لشرح التعقيدات التي تفرضها البنى اللاواعية أو الهياكل المادية. فالتجربة الإنسانية ليست مجرد تفاعل بين الذات والموضوع عبر الرموز، بل تشمل صراعاتٍ خفيةً تُدار في مساحات اللاوعي أو عبر علاقات القوة. سنرى ذلك في النقاط التالية:

من منظور التحليل النفسيّ، يُقدّم فرويد مُناقشةً مُقنعةً تُثير تساؤلاتٍ جذرية حول هذه المسألة. فبحسب فرويد، اللاوعي – بمُعتركه الرمزيّ الخاص، والذي يُشبه مُحيطًا هائجًا من الرغبات المُقمّعة – يُشكّل جزءًا لا يُستهان به من تجربتنا، بل يُمكن القول إنه الأساس الذي تُبنى عليه بقية التجربة. فرمزية الأحلام، على سبيل المثال، ليست ترجمةً مُباشرةً لِمعنى مُحدد، بل هي لغةٌ مُلتويةٌ تُعبّر عن رغباتٍ مُكبوتةٍ تُحاول الإفلات من قبضة العقل الواعي .

بل إن كاسيرر يعترف بتراتب المعرفة الإنسانية، فيشير إلى أن "هرم المعرفة الإنسانية يمتد من علم الفلك مرورًا بالرياضيات والفيزياء والكيمياء وصولًا إلى علم الأحياء" (Cassirer,1944,p.89). هذا التدرج يُظهر تمايزًا بين المنظومات الرمزية للعلوم الطبيعية وتلك الخاصة بالعلوم الإنسانية، لكنه يترك فجوةً في تفسير التفاعل بينها. فحتى أوغست كونت يذكر أن "في جميع الظواهر الاجتماعية، ندرك آلية عمل القوانين الفسيولوجية للفرد؛ بل وندرك أيضًا شيئًا يعدل آثارها" (Cassirer,1944,p.89)، مما يُشير إلى تعقيدات التفاعل بين البيولوجيا والثقافة، وهو ما لا تلتقطه الرموز الكاسيررية بشكل كافٍ.

أما مفهوم "الغريزة"، الذي انتقده كاسيرر بشدة، فيُبرز إشكالية أخرى. فكما يذكر: "الغريزة مصطلح غامض للغاية، قد تكون له قيمة وصفية معينة، لكن من الواضح أنه لا قيمة تفسيرية له" (Cassirer,1944,p.91). بل إنه يذهب إلى أن استخدام هذا المصطلح "يمنحنا في أحسن الأحوال نفس الشيء لكل شيء غامض" (Cassirer,1944,p.91). هذا النقد يتوازى مع تصريح روبرت م. يركس بأن مفاهيم "الغريزة" و"الذكاء" قد عفا عليهما الزمن (Cassirer,1944,p.91). هنا، تُكشف محدودية الرموز في تفسير السلوك الإنساني عندما تُختزل التجربة إلى "مجموعة محددة من الغرائز الأولية التي يمكن ترقيمها وفهرستها ووصفها بشكل شامل واحدة تلو الأخرى" (Cassirer,1944,p.91)، وهو ما يُهمل التفاعل الديناميكي بين العوامل البيولوجية والثقافية.

وإذا انتقلنا إلى ميدان المادية التاريخية، نجد الماركسية تُعارض بشدة فكرة استقلالية الرموز في إنتاج الوعي (أي أن الرموز تُنتج الوعي بشكلٍ مستقلٍ عن البنى المادية). فكما يُجادل غرامشي، الهيمنة الثقافية ليست ظاهرةً مجردة، بل تُبنى بواسطة آلياتٍ ماديةٍ ملموسة، كالمؤسسات التعليمية والإعلام، التي تُفرض رموزًا معينةً تُخدم مصالح الطبقة الحاكمة. فالتحكم في "الخطاب السائد"، كما يُقال، هو أحد أدوات هذه الهيمنة، وذلك بفرض تفسيراتٍ مُحددةٍ للواقع.

أما ميشيل فوكو، فقد ذهب أبعد من ذلك، مُعتبرًا أن الرموز ليست أدواتٍ محايدة، بل هي أجزاءٌ لا تتجزأ من "أنظمة الخطاب" التي تُنتج المعرفة ذاتها، وذلك ضمن شبكاتٍ معقدةٍ من العلاقات السلطوية. فمثلًا، الخطاب الطبي في القرن التاسع عشر لم يُجرّد الجسد من معناه الرمزي فحسب، بل حوّله إلى موضوعٍ خاضعٍ لِمراقبة المؤسسات، مُحوّلًا الفرد إلى "كائنٍ مُوضوعيّ" يُدار من قبل السلطة، بدلًا من ذاتٍ حرةٍ مُستقلة. فقد أصبحت جسدانا مُحاصرةً بشبكةٍ من الرموز التي تُحدد هويتنا وسلوكنا، كما تُحدد مُستقبلنا.

باختصار، يُظهر التحليل أن فكرة شمولية رموز كاسيرر تُعاني من قصورٍ جوهري، فهي تُغفل أبعادًا مُهمةً من التجربة الإنسانية، سواءً على مستوى اللاوعي أو في سياق العلاقات السلطوية المُعقدة.

المطلب الثاني: تحديات التعددية الثقافية والتعقيد التكنولوجي

تُعدّ التعددية الثقافية، في زمننا هذا المُتسارع تقنيًا، ساحةً خصبةً للتفاعل، لكنها أيضًا مُنزلقٌ مُحْتَمَلٌ نحو سوء الفهم والصراع. فبينما نحتفي بالتنوع البشري الغني، تُبرز التحديات المُعاصرة.

ففي ظلّ هذه الاخيرة"التعددية الثقافية"، تُعيد الثقافات تشكيل الرموز بطرقٍ تتجاوز النموذج الكاسيرري. فـ"الرمزية هي المجال الذي يعيش فيه الإنسان، ولا يمكن دراسته وفهمه إلا بأخذها في الحسبان" (كاسيرر،2017،ص.267). لكنّ التكنولوجيا الرقمية، مثل خوارزميات التواصل الاجتماعي،تُنتج رموزًا جديدةً (كـ"الإعجاب") تفتقر إلى العمق الدلالي التقليدي.هنا، يُصبح "التداخل بين العملية الموضوعية والفعل الذاتي" (Cassirer,1819,p.214) في الفعل الرمزي الجمعي مُفتتًا، إذ تُختزل التجربة الجسدانية إلى إشاراتٍ افتراضيةٍ مجردة.فكما يُشير كونت، فإن محاولات الفهم الفردي المُجرّدة تُصبح "أوهامًا" (Cassirer, 1944, p. 88) في ظل تعقيدات العصر الرقمي.

دعونا نتأمل، على سبيل المثال، بعض هذه التحديات المُعقدة.

أولًا، تُطرح مشكلة النسبية الثقافية بحدةٍ مُلحّة. فكما أشار كليفورد غيرتز في دراساته المُميزة عن بالي، قد يحمل الرمز الواحد، كرقصةٍ تقليدية مثلًا، معاني متضاربة تمامًا بين الثقافات. ما يُمثل تعبيرًا روحانيًا عميقًا في مجتمعٍ ما، قد يُنظر إليه

في مجتمعٍ آخر باعتباره مجرد طقسٍ اجتماعيٍ جافٍ، خالٍ من أي دلالة ميتافيزيقية. تخيلوا، مثلًا، فرق التفسير بين رقصٍ دينيٍ مُقدّس، وبين رقصٍ شعبيٍ احتفاليٍ، فكل منهما يحمل رمزيةً ثقافيةً خاصةً به، تختلف اختلافًا جوهريًا. هذا يُلقي بظلاله على جهودنا في بناء جسورٍ من التفاهم المتبادل.

ثانيًا، تُدخِل التكنولوجيا الرقمية، وبخاصةً الفضاء الافتراضي، عناصرَ تعقيدٍ جديدةً تمامًا. فخوارزميات الذكاء الاصطناعي، التي تُدير منصات التواصل الاجتماعي، تُعيد تشكيل وعينا الجماعيّ بطرقٍ مُدهشة، بل ومُقلقة أحيانًا. تُبنى هذه الخوارزميات على معادلاتٍ رياضيةٍ بحتة، تفتقر – في أغلب الأحيان – إلى أيّ

حسٍّ بالرمزية الثقافية التقليدية. هل "الإعجاب" (Like)

على سبيل المثال، يُمثل رمزًا جديدًا للقيمة الاجتماعية في عالمنا الرقمي؟ أم أنه مجرد مؤشرٍ كميٍّ فارغ؟ هذا السؤال، وبعضه الآخر، يحتاج إلى دراسةٍ معمقةٍ لتفادي الوقوع في فخاخ سوء الفهم.

وأخيرًا، لا نستطيع تجاهل ما كشفه إدوارد سعيد في كتابه الرائد "الاستشراق" حول استخدام الرموز الدينية والثقافية كأدواتٍ للهيمنة. فقد تمّ استغلال الرمزية، على مرّ التاريخ، لبناء صورٍ نمطيةٍ مُشوّهة، وإقامة تصنيفاتٍ مُسيئة لثقافاتٍ أخرى. فصورة "الشرق" كآخر متخلف، مثالٌ صارخٌ على ذلك. هذا يُذكّرنا بأنّ الرمزية، بقدر ما تُعزز الفهم المتبادل، قد تُستخدم
أيضًا كسلاحٍ مُدمّرٍ يُعمق الهوّة بين الثقافات. لذا، يجب أن نكون حذرين، دقيقين، ومُدركين تمامًا للبعد السياسي والاجتماعي للرموز التي نستخدمها، ونُفهمها. فالتفاهم الحقيقيّ يتطلب جهدًا مُضنيا، وعقلًا منفتحًا، وقلبًا مُتسامحًا.

المبحث الثاني: النقد الفلسفي والمعرفي: بين البنيوية وما بعد الحداثة

يُشكّل هذا المبحث امتدادًا نقديًا لأسس الرمزية الكاسيرية، التي رأت في الأشكال الرمزية أدواتٍ مؤسّسةً للمعنى الإنساني. فإذا كان كاسيرر يؤكد أن الانتقال بين العلوم الرياضية والفيزيائية وعلوم الحياة "ينطوي على تغيير في نمط العقلانية" (عطار، 2023، ص. 209)، فإن هذا التحول يُمثِّل نقطة ارتكاز للنقد ما بعد الحداثي، الذي يشكك في إمكانية وجود أنماط عقلانية مغلقة أو سرديات كبرى قادرة على تفسير التعقيد الوجودي. فالنقد هنا لا ينفي دور الرموز، بل يُعيد فحص مركزيتها كمحدِّد وحيد للحقيقة، خاصة في ظل تحولات العلوم الحديثة والتعددية الثقافية.

يتفرّع هذا النقد، إلى مسارين متكاملين كالتالي:

أولا: المسار الفلسفي: يُهاجم هذا المسار فكرةَ "المركزية الرمزية" التي تبلورت في فلسفة كاسيرر، الذي رأى في الإنسان "كائنًا رامزًا" يخلق معنى وجوده عبر أشكالٍ كاللغة والأسطورة والفن (عطار، 2023، ص. 212). لكنَّ ليوتار يرفض هذه السردية الشمولية، مُعتبرًا إياها جزءًا من "الميتاناراتيف" الذي تُفكّكه ما بعد الحداثة. فإذا كانت الأشكال الرمزية عند كاسيرر "وظيفة أصلية لا فرعًا من شيءٍ سوى التفكير الإنساني" (عطار، 2023، ص. 213)، فإن دريدا يُظهر أن الثنائيات الرمزية (كالعقل/الجسد، الثقافة/الطبيعة) تحمل في طياتها هرمياتٍ قمعية، تُهمّش كلَّ ما لا ينضوي تحت منطقها.
هنا يبرز تناقضٌ جوهري: فمن ناحية، تؤكد الرمزية الكاسيرية أن "الشكل الرمزي ليس انعكاسًا للواقع، بل موجودًا مستقلًا عنه" (عطار، 2023، ص. 213)، مما يمنحه طابعًا إبداعيًا. لكن من ناحية أخرى، يُشير كارناب إلى أن هذا الاستقلال الميتافيزيقي يفتقر إلى إمكانية التحقق التجريبي، مُعيدًا طرح سؤال الحدود بين الرمز كأداة تفسيرية والواقع المادي.

ثانيا: المسار العلمي-التقني: وهنا، تُظهر العلوم الحديثة، كالميكانيكا الكمية، أن الواقع يتجاوز النماذج الرمزية التقليدية. فإذا كانت الرموز الكاسيرية تُشكِّل "عالم الإنسان" عبر اللغة والأسطورة (عطار، 2023، ص. 213)، فإن التقنية الحديثة – كما يوضح هايدغر – تعيد تشكيل الوجود ذاته، مُحوِّلةً الرمز من أداةٍ تفسيريةٍ إلى كيانٍ افتراضيٍ يعيش في فضاءاتٍ رقميّة. فشبكات التواصل الاجتماعي، مثلًا، لم تعد مجرد وسائل تعبير، بل فضاءاتٍ تُعيد تعريف الهوية خارج الأطر الرمزية التقليدية.

لا يهدف النقد إلى إلغاء الرمزية، بل إلى توسيعها. فكما يرى كاسيرر أن "من الواجب مراعاة جوانب أخرى غير الفهم العقلي" (عطار، 2023، ص. 212)، يجب دمج الرموز مع الطبقات اللاواعية (الفرويدية) والمادية (الماركسية). فالإنسان ليس مجرد "نفس عاقلة إلهية الجوهر" (عطار، 2023، ص. 209)، بل كائنٌ تُشكِّله تفاعلاتٌ معقَّدة بين الرمز والمادة، الوعي واللاوعي، الفردي والجماعي. وهكذا يصبح الرمز قطعةً في فسيفساء المعرفة الديناميكية، لا مفتاحًا سحريًا لوحدها.

المطلب الأول: تفكيك الشمولية الرمزية

تُشكّل الشمولية الرمزية، تلك الرؤية التي تُحاول تفسير العالم عبر نظام رمزي موحّد، هدفًا رئيسيًا للنقد في الفكر المعاصر. كأنها حصنٌ منيعٌ، يحاول المفكرون اقتحامه من زوايا متعددة. فاصبحت هذا النموذج الكاسيرري يواجه انتقاداتٍ من تياراتٍ مثل التفكيكية والوضعية المنطقية (من مفكّري ما بعد الحداثة). فإذا كان كاسيرر يرى أن "الرمز هو النقطة المركزية وحجر الزاوية في فلسفة الأشكال الرمزية" (كاسيرر،2017،ص.266)، فإن دريدا يُفكّك الثنائيات الرمزية ليُظهر تحيزاتها الهرمية، بينما يشكك كارناب في إمكانية التحقق التجريبي من الادعاءات الميتافيزيقية للرموز. فإذا كان كاسيرر يرى أن "التنظيم مفهوم الذات لا يرتبط بالضمير؛ بل هو بالأحرى نتيجة لنشاط مجالات لغوية أخرى، على سبيل المثال وساطة الإسم والفعل" (Cassirer,1819,p.214)، فإن ما بعد الحداثة تُبرز كيف أن هذه الوساطة تخضع لسياقات سلطوية متغيرة. دعونا نتتبع مساراتهم أكثر:

أولًا، نقد ما بعد الحداثة: نجد جان فرانسوا ليوتار، ذلك المُفكّر، يُعلن تمردًا صاخبًا على ما أسماه "الرواية الكبرى". هذه "الرواية"، كما يراها، ليست سوى محاولةٍ طموحة – بل ويائسة – لتفسير كل شيء من خلال إطار رمزي واحد، كأنّ العالم بأكمله مسرحيةٌ تُمثّل على خشبةِ رمزٍ واحدٍ ضخم. لكنّ ليوتار، بدلًا من ذلك، يُؤكّد على تعدّدية المعارف، مُفضلًا سردياتٍ صغيرةً، متعددة الألوان والزوايا، تُشبه قطعًا من فسيفساءٍ بدلًا من لوحةٍ ضخمةٍ مُوحّدة. كلّ سرديةٍ تُضيء جانبًا من الحقيقة، ولكنها لا تُمثّل الحقيقة الكاملة، تمامًا كما لا تُمثّل قطعة الفسيفساء اللوحة بأكملها.

وإذا كان ليوتار يحتفي بتشظي المعاني وتعدد السرديات، فإن كاسيرر، ضمن مشروعه الفلسفي، يعترف هو أيضًا بتعددية الرموز وتباين أنساقها، وإن كان ذلك في إطار بناء رمزي إيجابي للثقافة، لا عبر تفكيكها. ففي هذا السياق، يشير كاسيرر إلى أن "النظام والترابط المقولاتي، نجد تعددا متنوعا، لكن من دون علاقات" (مخوخ، 2017، ص. 320)، ما يفيد بأن الفعل الرمزي لا ينتظم في وحدة مغلقة بل يتوزع في أنماط متغايرة.

ثانيًا، يأتي جاك دريدا، ذلك العملاق في التفكيك، ليُفكّك – كما يُشير اسمه – الثنائيات الرمزية ذاتها، تلك الأزواج المتناقضة التي يبدو أنها تُشكل أساس الكثير من أنظمة التفكير. فالثنائية بين "الثقافة" و"الطبيعة"، على سبيل المثال، ليست مُعادلةً، بل هرميةٌ خفية. فـ"العقل"، في الخطاب الغربي التقليدي، يُمثّل القمة، بينما يُعتبر "الجسد" تابعًا له، مُخضعًا لسلطانه. وهذا التمييز، كما يُبيّن دريدا ببراعةٍ، ليس إلا أداةً قمعيةً، تُخفي اختلالًا في التوازن. فكلّ ثنائية، في نظر دريدا، تُخفي مُعادلةً غير مُتوازنة، تُشبه ميزانًا مُعطّلًا.

غير أن كاسيرر، وهو يدرس الفعل الرمزي، لا ينصرف إلى تفكيك الأنظمة كما يفعل دريدا، بل يسعى إلى إبراز دور الرموز - ولاسيما اللغة - بوصفها قوة خالقة للمعنى ومؤسسة للوعي. ففي هذا الإطار يؤكد أن "اللغة توجد في بؤرة الوجود الروحي التي تجتمع فيها أشعة ذات أصول عدة جد متباينة، ومنها تنطلق خطوط عدة موجهة نحو جميع مناطق الروح"

(مخوخ، 2017، ص. 320)، مما يدل على أن اللغة ليست مجرد أداة تقنية بل مركز إشعاع للوجود الروحي. ومن هذا المنظور، يُعدّ كاسيرر اللغة "الوسيط بامتياز، والأداة الأكثر أهمية ونفاسة (...) لبناء عالم حقيقي للموضوعات" (مخوخ، 2017، ص. 320)، مما يجعلها الشكل الرمزي الأكثر تأسيسًا للثقافة الإنسانية.

يتضح من ذلك أن كاسيرر، خلافًا لبعض توجهات نقد الحداثة، لا يهدم فكرة النظام الرمزي بقدر ما يعيد صياغتها بوصفها شبكة دلالية مفتوحة ومتعددة تنبثق من الروح الإبداعية للإنسان.

وإذا كان نقد ما بعد الحداثة والتفكيك قد سلط الضوء على تعددية المعاني والهياكل الرمزية الخفية، فإن الوضعية المنطقية، ممثلة في رودلف كارناب، تتخذ موقفًا أكثر جذرية، إذ تسعى إلى تصفية الخطاب الرمزي من كل بقايا الميتافيزيقا. فكارناب يدعو إلى استبدال القيم الرمزية بقيم تجريبية صرفه، معتبرًا أن: "يجب تنحية هذه الاختصارات جانبًا؛ ويجب استبدال القيم الرمزية بقيم 'حقيقية'، أي بأحاسيس فعلية" (Cassirer, 1957, p. 193). في هذا السياق، تتعارض الرؤية الكانطية التي تشكل خلفية لفكر كاسيرر، حيث يَعتبر أن الفهم هو شرط ضروري لكل إدراك: "حيثما لم يجمع الفهم شيئًا سابقًا، لا يمكنه إجراء أي تحليل، لأنه لا يمكن إعطاء أي شيء للخيال سوى ما يجمعه الفهم" (Cassirer, 1957, p. 194). غير أن النقد التفكيكي يذهب أبعد من ذلك، مُظهرًا أن الأنظمة الرمزية ليست أدوات محايدة للفهم بل تقوم بإنتاج هياكل سلطوية وإيديولوجية مستبطنة داخل اللغة والمعرفة.

باختصار، تُمثّل هذه النظريات الثلاثة – ما بعد الحداثة، والتفكيكية، والوضعية المنطقية – محاولاتٍ مُختلفةً، لكنها مُتكاملة، لتفكيك الشمولية الرمزية، وكشف الخلفيات الإيديولوجية والقمعية الخفية في أنظمةٍ رمزيةٍ تبدو في الوهلةِ الأولى متماسكةً ومُتكاملة.

المطلب الثاني: محدودية الرموز في مواجهة العلوم والتقنية الحديث

تُشكّل العلوم الحديثة اختبارًا جذريًا لقدرة اللغة الرمزية على تمثيل تعقيدات الواقع. فبينما رأى غاليليو أن "كتاب الطبيعة مكتوب بلغة رياضية"، يؤكد كاسيرر أن "عالم الإنسان كتاب مكتوب بلغة رمزية" (كاسيرر،2017،ص.266-267). إلا أن الانزياحات البارادايمية، كما صاغها توماس كون، تكشف أن التحولات الجذرية في النماذج العلمية تتطلب إعادة تشكيل الرموز ذاتها، لا الاكتفاء بأنظمةٍ ثابتة.

في الفيزياء الكمومية، حيث يُصبح الوجود مُتعدد الحالات (كالجسيم الذي يوجد في مكانين في آنٍ واحد)، تُختبر حدود الرمزية الكلاسيكية. فـ"الشعور الملموس للإنسان يبقى مرتبطًا بالحدس الجسدي" (Cassirer,1819,p.214)، لكن هذا الحدس يعجز عن استيعاب مفارقاتٍ كالتراكب الكمي أو التشابك، التي تتطلب لغةً رياضيةً مجردةً تتجاوز الثنائيات اللغوية. هل تستطيع الرمزية الكاسيررية، ببنيتها الثنائية (ذات/موضوع)، استيعاب واقعٍ يُحطم كلَّ تصنيفٍ تقليدي؟

لنبدأ بفيزياء الكم، ذلك العالم الغريب الذي يُحطّمُ مفاهيمنا الراسخة. تُمثّل ظاهرة "التراكب الكمي"، حيث يُصبح الجسيم موجودًا في حالات متعددة في آنٍ واحد، تتعطل الثنائيات اللغوية. يُذكر هنا تحذير كاسيرر: "وعيًا يمتلك نطاقًا وقوة كافيين للعيش في التفاصيل نفسها... لن يحتاج إلى هذه الوحدات الرمزية" (Cassirer, 1957, p. 193)، مما يُشير إلى حاجة الرموز للتكيف مع مستويات جديدة من التجريد.

كيف نُعبّر عن هذه المفارقة باستخدام رموزٍ لغويةٍ مُصممة، في الأساس، لوصف عالمٍ ثنائيّ، عالمٌ من الصواب والخطأ، من الوجود والعدم؟ ألا تبدو اللغة، في هذه الحالة، كسيفٍ دون مقبض، أداةٍ عاجزةٍ عن استيعابِ مُعجزاتِ الكون؟ يُطرح

السؤال هنا: هل نحتاج إلى لغة جديدة، لغة تتجاوز حدود المنطق الثنائي، لِلتعبير عن هذا العالم المُعقد؟ لغةٌ ربما تتشابه في غرابتها مع العالم الكمي نفسه.

وننتقل إلى فلسفة التقنية، حيث يَبرز تفكير هايدغر المُثير للجدل. لا يرى هايدغر في التكنولوجيا الحديثة، مثل المصانع الآلية المُتطورة، مجرد منتجٍ لرمزيةٍ جديدة، بل قوّةً مُغيّرةً للوجود الإنساني بِذاته. فهي تُعيد تشكيل علاقتنا بالعالم عبر منطقٍ أداتيّ بحت (Instrumental Rationality)، منطقٌ يُركز على الكفاءة والفعالية، مُتجاهلًا – أو ربما مُتجاوِزًا – الأبعاد الرمزية والمعنوية. كأنما أصبحت التكنولوجيا، في نظر هايدغر، أفعوانًا مُتسلطةً، تُملي علينا شروط وجودنا.

كما يرى هايدغر، عبر

منطق أداتي يُهمّش الأبعاد الرمزية. فـ"الإدراك لا ينتمي إلى الأنا ولا إلى 'شيء ما'... إلا إذا خضع لقوانين كونية" (Cassirer, 1957, p. 194)، لكن هذه القوانين نفسها تتشظى في العصر الرقمي. فالتفاعلات الافتراضية تُجرد الجسد من حضوره الحسي، مُخلّفةً فجوةً بين النية الجسدية والتعبير الرمزي، كما يُلاحظ ميرلو-بونتي في تحليله للظواهر المتعمدَة: "كل ظاهرة نفسية تتميز بالاتجاه نحو شيء ما" (1957, p. 196 (Cassirer,

وأخيرًا، نجد في تاريخ العلوم دليلًا آخر على حدود اللغة الرمزية. يُؤكد توماس كون، في تحليله للثورات العلمية، أن التقدم العلمي لا يُشبه عملية تراكمٍ مُستمرّ للرموز والمعارف، بل هو عبارة عن سلسلةٍ من "الانزياحات البارادغمية" (Shifts Paradigm). هذه الانزياحات، التي تشبه زلازلًا تُغيّر وجه الأرض، تُقوّضُ الأطر الرمزية القديمة، مُستبدلةً إياها بأُخرى جديدة كلياً. فكّر مثلًا في التحوّل من نموذج مركزية الأرض إلى نموذج مركزية الشمس – تغييرٌ جذريٌّ لم يُعدّل فقط فهمنا للكون، بل غيّر أيضاً الطريقة التي نُفكّر بها ونُعبّر عن أنفسنا. لقد كانت هذه نقلةٌ نوعيةٌ، تُشبه ولادة لغة جديدة تمامًا.
باختصار، تُشير هذه الأمثلة إلى أن اللغة الرمزية، رغم قوتها ومرونتها، ليست أداةً مُطلقةً لفهم كل شيء. فقد تُصبح عائقًا في مواجهةِ تعقيداتٍ تتجاوز قدراتها الوصفية، مُطلِبةً منا البحث عن أدواتٍ جديدة، وأساليبَ تفكيرٍ مُبتكرة، لِفهمِ هذا الكون الغامض والواسع.

المبحث الثالث: نحو آفاق جديدة: إعادة بناء فلسفة الرموز وبدائلها

يُشكّل هذا المبحث الثالث نقلةً نوعيةً من رحلة التفكيك النقدي في المبحث السابق، إلى مسارٍ إيجابيّ يُعنى بإعادة البناء والابتكار. فبعدما كشفت تحليلاتنا السابقة عن قصور النماذج الرمزية التقليدية في فهم تعقيدات واقعنا المتشابك، نقف الآن على أعتابٍ جديدةٍ، نستكشف فيها آفاقًا رحبةً لإعادة تعريف دور الرمز في عصر التحولات المعرفية والتقنية الهائلة. لم يعد يكفي مجرد انتقاد المركزية الرمزية، بل بات لزامًا علينا صياغة أدواتٍ تحليليةٍ أكثر مرونةً، تتواءم مع تنوع اللغات، وتفجر السياقات الرقمية، وتداخل الواقع المادي مع عالم التكنولوجيا.

يتفرع هذا المسعى إلى اتجاهين مترابطين، يشكلان معًا خارطة طريقٍ نحو فهمٍ أعمق:

أولًا: تطوير السيميائيات التقليدية. لا يعني هذا التخلي عن الإرث القيّم للسيميائيات، بل إثراءه وتحديثه. نحتاج هنا إلى دمج مناهج تُركّز على السياق الحيوي والاجتماعي، على غرار ما اقترحه إيكو، مع ربط الرموز بالتجربة الحسية المباشرة كما فعل ميرلو-بونتي. فكما يشير كاسيرر، الوعي لا يتماهى مع معطيات الحس أو الإدراك المباشر، بل يستخدمها كأرضية للتعبير ومعبر لإبراز ذاته (مخوخ، 2017، ص. 323). بمعنى أن الرمز لا يُختزل في كونه مجرد غلاف يُضاف إلى الفكر،

بل هو عملية توليد معانٍ عبر هيئة حسية خارجية تتوسط بين الفكر والعالم (مخوخ، 2017، ص. 323). من هنا، يصبح الجسد والمادة عناصر حيوية في إنتاج الرمزية، لا مجرد أدوات خارجية. هذا الارتباط الوثيق بين الشكل الخارجي والمحتوى الداخلي يبرز جليًا في أن الروح لا تُفصح عن مكنونها إلا عبر هيئة محسوسة، وأن الفكر نفسه لا يُدرك إلا من خلال العلامات التي يشكلها (مخوخ، 2017، ص. 322).

بهذه الطريقة، نعيد الاعتبار للجسد كعنصرٍ أساسيٍّ في إنتاج المعنى، في زمنٍ تُهدد فيه الفضاءات الافتراضية بتفكيك بنية المعنى ذاته، كأنها أشباحٌ تتسلل إلى أروقة الوعي.

ثانيًا: اقتراح بدائل جذرية. هنا، نتجاوز الحدود التقليدية للتفكير الرمزي، مستكشفين نماذجَ بديلةً أكثر جراءةً. فمن الممكن، مثلًا، استلهام النموذج الجذموري لدولوز وغواتاري، الذي يستبدل الهرمية بالشبكة، أو الانغماس في فلسفة اللغة العادية لفيتجنشتاين، التي تربط المعنى بالممارسة اليومية. هذا التعدد في مقاربات العالم، أي تعدد "رؤى العالم ذاتها"، كما يصفه كاسيرر (مخوخ، 2017، ص. 322)، يشير إلى ضرورة تجاوز الأحادية والاقتراب من الفهم الشبكي للرموز وللعالم.

في هذا المسعى، يمكن كذلك التعمق في أفكار ما بعد الإنسانية لدى برايدوتي، التي تُعيد تشكيل تصورنا للإنسان في ظل التطورات التكنولوجية الحيوية. تُشبه هذه العملية البحث عن كنوزٍ مخفيةٍ في متاهات الفكر، رحلةٌ محفوفةٌ بالمغامرة والاكتشاف.

لا نقدم في هذا المبحث حلولًا جاهزةً، بل نُضيء على مسارٍ بحثيٍّ مُستمرّ، يُجيب عن أسئلةٍ وجوديةٍ مُلحةٍ: كيف تُشكّل الرموز عالمًا متفرعًا بين الواقعي والافتراضي؟ وكيف تُواكب الفلسفة تحولات الجسد واللغة في هذا العصر الرقمي المتسارع؟ إنها رحلة لا تنتهي عند التفكيك، بل تبدأ منه، رحلة نحو بناء مفاهيم جديدة تناسب تعقيدات القرن الحادي والعشرين، رحلة تستحق كل جهد نبذله فيها.

المطلب الأول: نحو سيميائيات معاصرة للرموز

في رحلة استكشافية عبر متاهات الدلالات في عالمنا الرقمي المتشابك، نجد أنفسنا أمام مفترق طرقٍ فلسفيٍّ مثيرٍ للاهتمام. تُبرز نظريتا السيميائيات السياقية لأمبرتو إيكو والظاهراتية الجسدانية لموريس ميرلو-بونتي رؤيتين متميزتين، وإن كانتا متداخلتين]سيميائياتٌ تدمج بين السياق الاجتماعي (كما عند إيكو) والتجربة الجسدانية (كميرلو-بونتي)[.فـ"الرمزية لا تنتمي إلى أي مجال روحي خاص، بل هي مركز نسقي تتخذه الميادين الفلسفية الأساسية كلها هدفًا لها" (كاسيرر،2017،ص.269-

270)، مما يستدعي توسيعَ مفهومها ليشمل التفاعلات الرقمية المعاصرة.و لفهم كيفية تكوين معاني الرموز في عالمٍ يشهد

انفجارًا معلوماتيًا لا يُضاهى. سنُمعن النظر في هاتين النظريتين، مُسلطين الضوء على نقاط التقاءهما واختلافاتهما، في محاولةٍ لفهم هذا التعقيد السيميائي.

في هذا الإطار، يُقدم كاسيرر تصورًا توحيديًا للواقع عبر "وظيفة المعنى" (Janz, 1997, p. 76)، لكن النماذج المعاصرة تُضيف بُعدًا ديناميكيًا. فـ"تحرير الروح" الذي يتحدث عنه كاسيرر (Janz, 1997, p. 86) لم يعد ممكنًا إلا عبر تفكيك الأنظمة الرمزية وإعادة بنائها في سياقات متغيرة.

أولًا: السيميائيات السياقية عند أمبرتو إيكو: معنىً يتشكل عبر التفاوض الاجتماع

يُجادل إيكو بأن الدلالة عملية ديناميكية تتشكل عبر التفاعل بين النصوص والسياقات الثقافية، وهو ما يتقاطع مع رؤية كاسيرر لفهم العالم كنشاط روحي حرٍّ وليس مجرد استيعاب سلبي للواقع (Matherne, 2021, p. 127). فكما تُشكل "الموسوعات المعرفية" عند إيكو إطارًا متغيرًا للدلالة، تؤكد فلسفة كاسيرر للأشكال الرمزية على ضرورة العودة إلى "المصادر الذاتية الأولية" وأنماط السلوك الأصلية التي تُشكل الوعي الثقافي (Matherne, 2021, p. 125). هذا التماثل يُبرز كيف أن كاسيرر – رغم تأطيره المشروع بمصطلحات كانطية كنقد للثقافة – يتبنى أيضًا منظورًا هيغليًا يجعل من الظواهر الثقافية تعبيرًا عن تطور الوعي الجمعي (Matherne, 2021, p. 122).

في مثال رمز "الوجه الباكي"، تتجلى إشكالية السلطة بين المُستخدِم والمُصمم، وهي إشكالية تُذكرنا بتحذير ناتورب من ضرورة "إعادة بناء" العمليات النفسية الكامنة خالف الممارسات الثقافية لفهمها (Matherne, 2021, p. 124). فالدلالة الرقمية هنا ليست مُعطاةً سلفًا، بل تُفكك الثنائية بين الذاتي والموضوعي عبر تفاوضٍ مستمر، تمامًا كما يرى كاسيرر أن
الفئات العقلية تتخذ "أنماطًا" مختلفة باختلاف السياقات الذاتية (Matherne, 2021, p. 135).

لكن هذا التصور يُثير بعض التساؤلات الفلسفية الهامة. أين تقع سلطة المُستخدِم مقابل سلطة المُصمم؟ هل الرمز الرقمي خاضعٌ لـ "مؤلفيةٍ مفتوحة"، كما يُشير رولان بارت؟ أم أن الخوارزميات والقوى المهيمنة تُعيد إنتاج دلالاتٍ مُهيكلةٍ مسبقًا؟ أسئلةٌ تستحق التأمل والبحث.

ثانيًا: الظاهراتية الجسدانية عند ميرلو-بونتي: الرمز كتجسيدٍ للتجربة الحسية

إذا كان إيكو يركز على السياق الاجتماعي، فإن ميرلو-بونتي يربط الدلالة بالجسد الحي (Leib) كوسيطٍ أولي للتجربة. هذا التوجه يُحاور بشكل غير مباشر فكرة كاسيرر عن انفصال الإدراك عن الحاضر الحسي؛ فبينما يرى كاسيرر أن الوعي
في الإدراك "ينفصل" عن المباشر الحسي عبر تمثيل الرموز كدلالات خالصة (Matherne, 2021, p. 135)، يؤكد ميرلو-بونتي أن الجسد نفسه هو مصدر الدلالة قبل أي تجريد. مع ذلك، يمكن التوفيق بين الرؤيتين عبر اعتبار الرمز الرقمي – كالإيموجي – محاولةً لتعويض الفقد الحسي عبر "أنماط" جديدة لتشكيل الوعي، وهو ما يتوافق مع مشروع كاسيرر في تتبع التحولات الرمزية للوظائف العقلية عبر الثقافات (Matherne, 2021, p. 135). بمعنى أن ميرلو-بونتي يؤكد تجسيد الرمز للتجربة الحسية. ومع ذلك، تظل إشكالية تطبيق هذا المنظور على الرموز الرقمية قائمة، حيث تُختزل التجربة الجسدانية إلى إيماءات افتراضية، مما يخلق فجوة سيميائية بين النية الجسدية والتعبير الرمزي (Luft, 2005, p. 270).

فلمسة اليد، على سبيل المثال، قد تُعبّر عن الحنان في سياقٍ عاطفيٍّ حميميٍّ، كلمس الأم لطفلها، بينما قد تُعبّر عن السلطة في سياقٍ آخر، كلمس المدير لموظفه. الدلالة، هنا، تُستمد من السياق الجسدي نفسه، من الحركة، المسافة، وحتى من التوتر العضلي، وليس من اللغة وحدها. التحدي الذي تطرحه الرموز الافتراضية – كغياب التوتر العضلي في لمسة الشاشة – يُعيد إحياء سؤال ناتورب عن ضرورة "إعادة بناء" العمليات الذاتية المفتقدة (Matherne, 2021, p. 124). فالفجوة بين النية الجسدية والتعبير الرقمي لا تُختزل إلى مجرد قصور تكنولوجي، بل تعكس تحولًا في "الأنماط الأصلية لتكوين الوعي" (Matherne, 2021, p. 125) نحو أشكال رمزية أكثر تجريدًا، تُعيد تعريف العلاقة بين الجسد والرمز في العصر الرقمي.

ثالثًا: التقاطعات والاختلافات: نحو سيميائياتٍ متعددة الأبعاد

تُعيد السيميائيات المعاصرة تشكيل فهمنا للرموز، لا ككيانات جامدة، بل كأنظمة ديناميكية تُعاد تشكيلها باستمرار عبر التفاعلات الاجتماعية. هنا، تبرز إشكالية العلاقة بين البنى الرمزية الثابتة في الموروث الثقافي، كالأسطورة، والأنظمة الدلالية المتغيرة. فكما يرى إرنست كاسيرر في تحليله للأسطورة، فإنها "ظاهرة بسيطة للغاية"، لا تنبثق من تأملٍ فلسفي أو تفكيرٍ منطقي، بل هي نتاجٌ لـ"قصور تفكير البداوة الإنسانية" الذي يُنتج تناقضاتٍ تبدو للعقل الحديث ضرباً من "الحماقات" (Cassirer, 1985, p. 19). إلا أن هذا التوصيف لا يقلل من تعقيدها، بل يشير إلى اختلاف جوهري في بنية العقل الإنساني عبر السياقات الثقافية. فالعقل البدائي، بحسب كاسيرر، ليس منطقياً بل "سابقاً للمنطق" أو "غيبيّاً"، يعيش في عالمٍ خاصٍ به، يرفض فيه حتى المبادئ المنطقية الأولية (Cassirer, 1985, p. 27).

هنا، تلتقي السيميائيات التداولية مع تحليل كاسيرر، لكنها تُعيد تفسير هذه الثنائية. فإذا كانت الأسطورة تعكس عالماً "سابقاً للمنطق"، فإن السيميائيات التفاعلية ترى في الرموز أفعالًا تواصلية حيةً، تندمج فيها اللغة والجسد والثقافة في رقصةٍ ديناميكية. فالجسد، بأحاسيسه، لا يُشكل مجرد وعاءٍ للرمز، بل يصبح جزءاً من نظامٍ دلاليٍ متغير، تُعيد التكنولوجيا الحديثة (كالذكاء الاصطناعي والواقع الافتراضي) صياغته. هذا التفاعل يُذكّرنا بملاحظة كانط التي أشار إليها كاسيرر: "إذا نُظر إلى المبادئ المنظمة الخالصة على أنها مبادئ مشتركة في بقية التجربة، فإنها ستبدو متناقضةً" (Cassirer, 1985, p. 27). فالتناقض الظاهري ليس ضعفاً في البنية الرمزية، بل دليلًا على تعددية السياقات التي تُنتج المعنى.

لا تقف السيميائيات التداولية عند تحليل الرموز التقليدية، بل تُضيء على التحديات الجديدة. ففي عصر التكنولوجيا المتقدمة، يصبح الجسد البشري شريكاً للآلة في توليد دلالاتٍ تتجاوز التفاعل البشري البسيط. هذه الشراكة تُعيد طرح سؤال كاسيرر عن "العالم الخاص" الذي يعيش فيه الفاعلون الرمزيون (Cassirer, 1985, p. 27)، لكنها تفتح آفاقاً لـ"عوالم افتراضية" تُعيد تعريف المفاهيم الأساسية للهوية والوجود.

أخيراً، تُشبه عملية بناء المعنى في السيميائيات المعاصرة تشييد قصرٍ افتراضيٍ من الرموز، حيث كل حجرٍ (رمزٍ) يُضيف بُعداً جديداً، تماماً كما تُشكل الأسطورة حجرَ الأساس في البنى الثقافية القديمة. لكن المهندس المعماري هنا ليس العقلَ الغيبيَّ الي تحدث عنه كاسيرر، بل هو العقل التفاعلي الذي يدمج بين المنطق والتجربة، بين الإنسان والآلة، بين الثابت والمتحول.

بمعنى أكثر بساطة؛ تتقاطع، بل وتتنافر أحيانًا، رؤى إيكو وميرلو-بونتي في فهم الرمز والدلالة. فبينما يغوص إيكو في عمق السياق الاجتماعي، باحثًا عن خيوط المعنى في نسيج العلاقات الإنسانية – وكأنه يحل لغزًا معقدًا – يربط ميرلو-بونتي الرمز

بتجربة الجسد الحسية المباشرة، كأنما الرمز نفسه امتدادٌ لجسدنا، نبضٌ من نبضاتنا. لكن، هل من الضروري اختيار جانب

على حساب الآخر؟ لا أعتقد ذلك. بل على العكس، أرى إمكانية رائعة لدمج هذين المنظورين المتناقضين، بما يشبه تكوين لوحة فنية تجمع بين تقنيات مختلفة، من خلال اعتماد مفهوم "الجسد الاجتماعي" الذي طوره بيير بورديو. فهذا المفهوم، ببراعته، يُبرز كيف تُنسج الدلالات من خلال التفاعل الديناميكي بين الجسد – هذا الكائن الحي النابض بالحياة – والبنى الثقافية المحيطة به، كأنها رقصة معقدة بين الفرد والمجتمع.

ولكن، ماذا يحدث عندما ننتقل إلى عالم الفضاءات الافتراضية؟ هنا، تُختزل التجربة الجسدية، بكل تعقيداتها، إلى إيماءات

رمزية مُبسطة، كأنما تُترجم لغةً غنيةً إلى لغة أبجدية مبسطّة. هذه الاختزال، بكل بساطة، يخلق فجوةً سيميائيةً هائلة بين النية الجسدية الأصيلة، والتعبير الرمزي المُقلص. تتولد هنا، بكل وضوح، الحاجة الماسة إلى تطوير سيميائياتٍ جديدة، سيميائياتٍ متعددة الأبعاد، تُدمج بين سياق العالم الرقمي – كما يراه إيكو – وبين التجسيد الحسي – كما يصوره ميرلو-بونتي

– لتجسير هذه الهوة، لتكوين جسرٍ متينٍ يُعيد إلى الرمز عمقه وغناه. فهل نستطيع تحقيق هذا التكامل؟ هذا تحدٍّ مثير للاهتمام، يُثير الفضول ويُحفز على البحث والتأمل.

كخلاصة، يمكننا القول بان السيميائيات المعاصرة تُعيد صياغة فهمنا للرموز، لا ككيانات جامدة، بل كأنظمة ديناميكية

تتراقص باستمرار على إيقاعات التفاعلات الاجتماعية. تخيلوا، لو جاز التعبير، رقصةً متقنة بين الجسد والثقافة واللغة، حيث تُشكّل كل حركة، كل لمسة، جزءًا لا يتجزأ من معنى أعمق. لم تعد الرموز مجرد نقوشٍ على حجر، بل هي أفعالٌ تواصليةٌ حية، تنبض بالحياة وتتغير تغير السياقات.

وفي هذا السياق، يتجلى تصور إرنست كاسيرر للكلمة كظاهرة تحمل نظامًا عقليًا مغايرًا، يتحرك بمرونة بين المعطيات الخاصة، ويربطها بعضها ببعض، دافعًا نحو تشكيل عالم رمزي متكامل تتفاعل فيه الحرية مع النظام (كاسيرر، 2009، ص. 107). وهكذا، لا تعود اللغة مجرد أداة لنقل المعاني، بل تصبح نسقًا فكريًا يعيد تشكيل الواقع ذاته.

وإذا أردنا فهم هذا التعقيد المتشابك، فلا مناص من تبني منهج "السيميائيات التداولية". فهي، ببساطة، كشافٌ قويٌّ يكشف لنا عن التفاعل المعقد بين الجسد – بأحاسيسه وتجرباته – والثقافة – بمعاييرها وتقاليدها – واللغة – بإيحاءاتها ودلالاتها. إنها كأنها مفتاحٌ سحريٌّ يفتح أبوابًا جديدةً لفهم الرموز وإنتاج المعنى.

يتعمق هذا الفهم حين ندرك، مع كاسيرر، أن التفكير الاستطرادي لا يقوم على إحالة إلى كيانات جوهرية ثابتة، بل يعمل كرمز أو علامة مثالية، يكون معناها كامناً في شبكة العلاقات التي تنسجها (كاسيرر، 2009، ص. 107). ومن ثمّ، يصبح العالم الرمزي شبكة متغيرة من الصلات لا تُختزل في أشياء معطاة بشكل مباشر.

وحين عرف كانط الواقع بأنه "أي محتوى للحدس التجريبي يتبع القوانين العامة وبالتالي يحتل مكانه في سياق التجربة" (كاسيرر، 2009، ص. 108)، فإنه فتح الباب أمام قراءة جديدة للواقع الرمزي باعتباره نتاجًا لقوانين الفكر الاستطرادي. وهكذا، لا يكون للظواهر دلالة أو وجود مستقل، بل تكتسب معناها ضمن شبكة معقدة من العلاقات الحية (كاسيرر، 2009، ص. 107).

ولكن، رحلة فهمنا لا تتوقف هنا. فمع ظهور الذكاء الاصطناعي وتقنيات الواقع الافتراضي، تُطرح أسئلةٌ جديدةٌ ومثيرةٌ حول مستقبل السيميائيات. كيف يُعيد هذا التطور التكنولوجي تشكيل دلالات الرموز؟ كيف يُصبح الجسد البشري والآلة شريكين في عملية تواصلية معقدة، تتجاوز حدود التفاعل البشري البسيط؟ إنها أسئلةٌ تُثير فضولنا وتُحفزنا على استكشاف آفاقٍ جديدةٍ في هذا المجال المتجدد دائمًا.

تُشبه هذه العملية بناء قصرٍ من الرموز، حيثُ كل حجرٍ (رمز) يضيف بُعدًا جديدًا، ويُغيّر من شكل القصر ومعنى وجوده. فالسيميائيات التداولية هي المهندس المعماري الذي يُساعدنا على فهم هذا البناء المُعقد، وتتبع تطوره وتغيراته بمرور الزمان. ومع تطور التكنولوجيا، يُصبح لدينا أدواتٌ جديدةٌ لفهم هذا القصر الافتراضي الذي نبنيه معًا.

المطلب الثاني: البدائل الفلسفية: من التفسير إلى التفكيك والتجاوز

تُقدم النماذج البديلة، مثل فلسفة اللغة العادية (فيتجنشتاين) وما بعد الإنسانية (برايدوتي)، رؤىً تتجاوز الثنائيات التقليدية. فبينما يؤكد كاسيرر على "تجاوز العقل لما هو معطى" (Janz, 1997, p. 76)، تُظهر ألعاب اللغة عند فيتجنشتاين كيف تُبنى المعاني عبر الممارسات اليومية، بعيدًا عن التجريدات الميتافيزيقية.

فتُشكّل هذه المقترحات نقلة نوعية في فهمنا للعالم والمعرفة. فبدلًا من التسلسل الهرمي الجامد في نقل المعرفة، كما هو الحال في النظريات الكلاسيكية، نجد أنفسنا أمام تصورات أكثر مرونةً وتشابكًا. دعونا نتأمل في بعض هذه المقترحات الرائدة:

أولًا، "نموذج الجذمور" يُقدّم دولوز وغواتاري، في عملهما الرائع "ألف مسطح"، نموذج "الجذمور" كبديل ثوريّ للبنى المعرفية الهرمية المتجمدة. فـ"الإنسان هو الذي يملك وسائطه الخاصة والمستقلة التي تعمل حصريًا على الكشف عن هذا..."
(Cassirer,1819,p.213)، لكن هذه الوسائط لم تعد حكرًا على الأنظمة الرمزية التقليدية، بل تشمل شبكاتٍ افتراضيةً تُنتج معانيها عبر التفاعل الجمعي. يتخيلان، ببراعة فذة، جذور النبات المترامية أفقياً، بلا مركزية مُسيطرة، كاستعارة لشبكة معرفية متشابكة، ديناميكية، تُعارض بشدّة تلك النظم المعرفية الكلاسيكية ذات التسلسل الهرميّ الجامد. تذكّرني هذه الصورة بأحد تلك الأنهار المتعرجة، تتفرّع وتتداخل، لا تتبع مساراً خطياً مستقيمًا. فهي، على عكس البنى اللغوية السوسورية القائمة على ثنائية الدال والمدلول المُرتبة هرميًا، تُقدّم نموذجاً تفاعلياً، حيث تتشابك الدلالات وتتداخل، مُنتجةً معاني متعددة ومتشابكة، بعيدة كل البعد عن الحتمية المفرطة.

لا يقتصر الأمر على ذلك، بل يتجاوز نموذج الجذمور مجرد وصف لشبكة معرفية؛ فهو يمثّل، في جوهره، مشروعاً ما بعد حداثيّاً يُعارض بشراسة المركزية المعرفية و تلك الثنائيات المُحكمة، كالثنائية المعروفة بين الذات والآخر، أو بين الطبيعة والثقافة. فالفهم، هنا، ليس نتاج مرجعيات ثابتة مُقدّسة، بل هو وليد سياقات متغيرة، متفاعلة، تتداخل فيها التأويلات وتتفاعل. يُشبه الأمر لوحةً فنيةً تجريديةً، حيث يختلف تفسيرها باختلاف زاوية النظر والخبرة الشخصية.

وهنا ، نستنتج أن هذا النموذج "الجذمور" يُشكك في الهرميات المعرفية، مُستبدلًا إياها بشبكات أفقية. هذا التحول يُجسد فكرة كاسيرر عن "وحدة العلاقة" (Janz, 1997, p. 76)، لكنه يضيف عليها بُعدًا تفكيكيًا. ومع ذلك، فإن هذه النماذج تثير تساؤلات حول إمكانية الحفاظ على التماسك المعرفي في ظل التعددية المفرطة.

لكن، كأيّ نموذج معرفيّ طموح، يُواجه نموذج الجذمور انتقاداتٍ لا يُستهان بها. فغياب معايير واضحة لتقييم هذه الدلالات المتشابكة قد يُؤدي، كما يُجادل البعض، إلى نسبية مفرطة، تُضعف من قدرة هذا النموذج على تفسير الظواهر المعقدة. يتمثل التحدي، إذن، في إيجاد التوازن بين المرونة والوضوح، بين التعددية والتماسك، بين التشعب المعرفيّ والقدرة على بناء معارف مُتينة، قائمة على أساس منهجيّ متين. فهل يمكن للجذمور، برغم جماله ومرونته، أن يُقدّم لنا إطارًا معرفيًّا شاملًا ومُقنعًا؟ يبقى السؤال مفتوحاً للنقاش والتأمل.

ثانيًا، "فلسفة اللغة العادية" تُشكّل فلسفة اللغة عند فيتجنشتاين المتأخر، كما تبلورت في تحفته "تحقيقات فلسفية" (1953)، نقلةً نوعيةً في مساره الفكري، انتقالًا حاداً من نظريته المبكرة التي تصوّر اللغة كمرآة تعكس الواقع، إلى رؤية أكثر ديناميكيةً ومرونةً. تخلى فيتجنشتاين عن هذا التصور التجريدي الجامد، مُعتمداً بدلًا منه على مفهوم "ألعاب اللغة" – مصطلحٌ يُضفي على فلسفته طابعاً لُعبيّاً، إن صح التعبير، لكنّه يُخفي عمقاً فلسفياً هائلًا. فما هي "ألعاب اللغة" هذه؟ إنها، ببساطة، ممارساتٌ لغويةٌ اجتماعيةٌ، تكتسب معناها من سياقها الاستخداميّ، تماماً كما تكتسب قطعة الشطرنج معناها من قواعد اللعبة وهدفها. يؤكد فيتجنشتاين في هذا السياق على أن »كل ما يقال يعتبر حدثاً مهما كانت اللغة التي يقال فيها« (فيتجنشتاين، 2007، ص22)، مما يعني أن اللغة لم تعد انعكاساً جامداً للواقع بل باتت جزءًا من نسيج الأحداث ذاتها. وهكذا، يقيم فيتجنشتاين "تناظراً ثنائياً بين القضية والكون ثم بين المنطق واللغة"، حيث تصبح اللغة صورةً للتفكير باعتباره مجموعة من الأحداث (فيتجنشتاين، 2007، ص22).

لنأخذ كلمةً بسيطةً مثل "ألم". في نظر فيتجنشتاين المبكر، كان للألم تعريفٌ مُجرّدٌ، مُستقلٌ عن سياقه. أما فيتجنشتاين المتأخر، فيرى أن فهم كلمة "ألم" لا يتأتى من تعريفٍ مُجرّد، بل من مجموعةٍ واسعةٍ من استخداماتها في سياقاتٍ مُتعددة. فكلمة "ألم" تُستخدم في سياقٍ طبيٍّ لتشخيص مرض، وفي سياقٍ عاطفيٍّ للتعبير عن التعاطف، وحتى في سياقٍ قانونيٍّ للمطالبة بتعويض. وهكذا، تتعدد معاني الكلمة وتتغيّر حسب السياق، كالحَمام الذي يتغير لونه حسب زاوية النظر إليه.

يُبرز فيتجنشتاين كذلك أن »ليس للرمز حياة خارج النظام« (فيتجنشتاين، 2007، ص24)، مما يدل على أن المعاني لا تنشأ إلا في إطار شبكة معقدة من العلاقات اللغوية. ففي "**الكراسة الزرقاء**" أوضح أن »العلامة (الجملة) تأخذ معناها في نطاق نظام علامات أو (في نظام اللغة) الذي تنتمي إليه« (فيتجنشتاين، 2007، ص24). اللغة ليست كيانات منعزلة، بل هي جزء من بنية جماعية معقدة تُعطيها معناها.

يُمثل هذا التحول نقلةً هائلةً من الميتافيزيقا التقليدية إلى البراغماتية، حيث تُعاد صياغة مهمة الفلسفة كعملية تحليلية دقيقة لاستخدامات اللغة في حياتنا اليومية. كما أن فيتجنشتاين يوضح طبيعة عمل الفيلسوف بقوله: »تحل الفلسفة عقد تفكيرنا؛ لهذا ينبغي أن تكون النتائج التي تتوصل إليها بسيطة، لكن عمل الفيلسوف ينبغي أن يكون معقداً تعقيد العقد التي يحلها« (فيتجنشتاين، 2007، ص29). وهو توصيف عميق لدور الفيلسوف ليس كمُكتشف للحقائق المجردة بل كمُعالجٍ للتشابكات الذهنية واللغوية.

وفي تطور آخر مهم، يعتبر فيتجنشتاين أن »ما ينتمي إلى جوهر الكون لا يمكن للغة أن تعبر عنه، ومع ذلك فلأن جوهر اللغة صورة من جوهر الكون يمكن للغة باعتبارها مضطلعة بالنحو أن تدرك جوهر الكون« (فيتجنشتاين، 2007، ص47). هكذا يفتح مجالًا لفهم أكثر تواضعاً وأقل ادعاءً لمقدرة اللغة على احتواء الوجود، دون أن ينفي علاقتها العضوية به.

من هنا، تظهر أهمية الإقرار بتعدد اللغات، إذ لا تقتصر اللغة عند فيتجنشتاين على النطق فحسب، بل تشمل أيضا »لغة الحركات والموسيقى، والألوان. وليست اللغة المنطوقة إلا واحدة ضمن اللغات الممكنة« (فيتجنشتاين، 2007، ص47). هذه النظرة الواسعة تُعيد صياغة علاقتنا بالمعنى، لتشمل أبعاداً متعددة من التجربة الإنسانية.

تأثر فيتجنشتاين في هذا التحول بمدرسة أكسفورد الفلسفية، وبالأخص بأفكار ج.ل. أوستن. لكن، هل يمكن تعميم هذا النموذج على جميع أشكال المعرفة؟ هذا السؤال يُثير جدلًا واسعاً. فكيف نفسر، على سبيل المثال، اللغة المُستخدمة في الرياضيات، التي تتطلب مستوىً عالياً من التجريد، بعيداً عن السياقات اليومية؟ هل تُطبق "ألعاب اللغة" في معادلات أينشتاين بنفس الطريقة التي تُطبق بها في محادثة عادية؟ يبقى هذا التساؤل مفتوحاً، يُثير نقاشاً فلسفياً ثرياً حتى يومنا هذا، مُظهراً تعقيد فلسفة فيتجنشتاين وعمقها.

ثالثًا وأخيرًا، نصل إلى "فلسفة ما بعد الإنسانية" تُعيد روزاي برايدوتي، فى أعمالها الرائدة مثل "ما بعد الإنسانية" (2013)، صياغة مفهوم الذات الإنسانية ببراعةٍ آسرة، مُقلعةً بذلك عن قواعد الفلسفة الكلاسيكية الجامدة. ليست برايدوتي مجرد باحثة،

بل كأنها ساحرةٌ تُعيد تشكيل الوعي البشري أمام أعيننا، مستخدمةً أدواتٍ من العصر الرقمي كفرشاةٍ سحرية. تُركز

برايدوتي على التشابك العجيب بين الجسد، هذا الكائن البيولوجي العتيق، والتكنولوجيا، هذا الوحش المتطور بلا هوادة. فى

زمنٍ تُعدّل فيه الجينات كما تُعدّل القصائد، وفى زمنٍ يُتقن فيه الذكاء الاصطناعي فنّ المحاكاة البشرية إلى درجةٍ مُذهلة،

يُصبح الوعي نفسه مُعاد صياغته، مُعاد بناؤه، من خلال تفاعله الحميمي مع شفرات الحياة (**DNA**) وشفرات العصر الرقمي (الخوارزميات). تتلاشى الحدود بين "الطبيعي" و"الاصطناعي" كأنها سرابٌ فى صحراءٍ قاحلة.

وبالتالي؛ تُعيد برايدوتي تشكيل الذات الإنسانية عبر التشابك بين البيولوجيا والتكنولوجيا. ومع ذلك، يُنتقد تركيزها على النخب التكنولوجية، مما يُهمش التفاوتات الاجتماعية في الوصول إلى التقنيات (Luft, 2005, p. 267).

هذا التحدي الجريء لبرايدوتي يُمثل جزءًا لا يتجزأ من خطاب ما بعد الإنسانية، ذلك الخطاب الذي يُعارض بشدة النظرية الإنسانية الكانطية المركزية، مُسلطًا الضوء على قدرة التكنولوجيا على خلق هويات هجينة ومُعقدة، هوياتٍ تُشبه الفُسيفساء، مُرصعةٌ بقطعٍ من البيولوجيا والثقافة والتكنولوجيا. لكن، وكم هو مؤسف، يُثار انتقادٌ مُهم لهذا التوجه. فبينما تُبهرنا برايدوتي بفلسفتها الجريئة، يُلاحظ بعض النقاد تركيزها المُفرط على النخب التكنولوجية، مما يُهمش الطبقات المُهمشة ويُتجاهل التفاوتات الهائلة في الوصول إلى هذه التقنيات الحديثة. فهل تُعيد هذه الرؤية إنتاج أشكالٍ جديدة من الاستبعاد الاجتماعي، مُخلفةً وراءها فجوةً سحيقة بين المُتقدمين والمُتأخرين؟ هذا السؤال يُمثل تحديًا كبيرًا يجب مُواجهته بجدية.

ومنه، فالنماذجُ مثل "**الجذمور**" (لدولوز وغواتاري) و"فلسفة اللغة العادية" (لفيتجنشتاين) تقدم إطارًا مرنًا لفهم تعددية الرموز. فإذا كان كاسيرر يهدف إلى "فهم كيفية تأويل الإنسان للعالم... وتأويل عالم الثقافة" (مخوخ،2017،ص.267)، فإن هذه النماذج تُضيف بُعدًا ديناميكيًا يُواكب تعقيدات العصر الرقمي، حيث تُعيد التكنولوجيا تشكيل الوجود الإنساني نفسه.

تُمثّل النماذج الثلاثة – **الجذمور، وألعاب اللغة، وما بعد الإنسانية** – محاولات جريئة لتفكيك القوالب المعرفية الراسخة، تلك القوالب التي لطالما رسمت حدودًا صماء للفكر البشري. تلك الحدود، التي تُشبه جدرانًا متشابكة من الطوب الهرمي المُجرد، تُهدّمُها هذه النظريات بأدواتها المختلفة، مُسلّطةً الضوء على ديناميكية المعرفة وسياقاتها المتشابكة، وعلى التداخل المُعقّد بين الإنسان والتكنولوجيا. كأنها تُشبه ثلاث مفاتيح سحرية، كلٌّ منها يُفتَح بابًا من أبواب الفهم.

فالجذمور، بمُفرداته المُتعددة والمتشابكة، يُشبه شبكةً عنكبوتية معقدة، يُعلي من شأن التعددية ويكشف عن روابط خفية بين الأفكار والمفاهيم، مُحطّمًا بذلك الهيمنة الأحادية التي طالما سيطرت على النظرية المعرفية التقليدية. ولعل هذا التوجه يجد صدى فيما أشار إليه كاسيرر حين أكد أن "العقل الإنساني يتلو بعضها بعضاً في نظام لا يتغير، وهذا النظام يعين دفعة واحدة - نسق الحضارة الإنسانية" (كاسيرر، 1944، ص. 337)، مما يبرز كيف أن التفكير البشري، رغم تعقيده الظاهري، ينتظم في نسق متشابك وغير خطي، أقرب إلى منطق الجذمور منه إلى منطق الشجرة الواحدة.

أما **ألعاب اللغة**، فهي تُعيد إلى الواجهة أهمية السياق، مُظهرةً كيف أن معنى الكلمات يتغيّر ويتحول بناءً على ظروف استخدامها، بطريقة تشبه ما وصفه كاسيرر بالاتجاه نحو "تشابه مشترك" بين الأحداث النفسية في الزمن الواحد، سواء على المستوى الفردي أو الجماعي (كاسيرر، 1944، ص. 337). وهنا يبدو أن المعنى لا ينبثق من الكلمة ذاتها، بل من علاقاتها ضمن سياق حيّ ومتحول.

وأخيرًا، تأتي **ما بعد الإنسانية** لتُعيد تخيّل مفهوم الجسد والعقل بطريقةٍ راديكالية، مُشكّكةً في الحدود التقليدية بين الإنسان والآلة. تُشبه رحلةً إلى عوالمٍ غير معروفة، عوالمٍ تُعيدُ تعريف ماهية الوجود ذاته. في هذا المسار، يصبح من المفهوم أن "المعيار الصحيح لا يوجد في قيم الحقائق بل في نتائجها العملية. وتصبح الحقيقة ملائمة تاريخياً إذا كانت حافلة بالنتائج" (كاسيرر، 1944، ص. 331)، إذ تتجاوز الحقيقة بعدها الثابت لتغدو ممارسة حية في العالم المتغير.

لكن، وبالرغم من قوة هذه النظريات وتأثيرها العميق، فإنها ليست بمنأى عن النقد. فالتفكيك بذاته لا يُمثل غايةً في حد ذاته، بل هو وسيلة. وهو ما يتطلب أن يكون قائماً على "كل الحقائق الصغيرة ذات المغزى" (كاسيرر، 1944، ص. 332)، حيث لا يُمكن تجاهل حتى أدقّ التفاصيل التي تسهم في بناء سردية معرفية عادلة وشاملة. يجب أن يُرافق هذا التفكيك حوارٌ نقديٌ جادٌّ مع إشكاليات النسبية والعدالة الاجتماعية، ليضمن ألّا يتحول هذا التفكيك إلى فوضى عارمة، بل يبقى أداةً لصياغة فهمٍ أكثر مرونةً للعالم وللإنسان مكانته فيه.

فالتفكيك ليس هدمًا بلا بناء، بل هو إعادة بناء على أسسٍ جديدة، أسسٌ تُراعي التعقيد والاختلاف والعدالة. إنه أشبه بما وصفه إدوارد ماير عند حديثه عن الحدث التاريخي، إذ يرى أن التاريخي هو "كل ذي أثر أو ما صار ذا أثر"، وأن مهمة الفكر هي أن يسأل: "ما الذي أنتج هذه الآثار؟" (كاسيرر، 1944، ص. 331)، أي أن التفكيك لا ينتهي عند الأثر بل يستقصي علة الأثر وفاعليته.

باختصار، تُقدم هذه المقترحات الثلاثة رؤىً جديدةً وواعدةً، تُعيد تشكيل فهمنا للمعرفة واللغة والوعي. إنها دعوةٌ للتفكير النقدي، للتساؤل عن المسلّمات، وللبحث عن طرقٍ بديلةٍ لفهم عالمنا المعقد، في ضوء "انطباع سيكولوجي عام يصرح إطلاقاً بفكرة الوحدة، تجريبية كانت أو تاريخية، ويتطلبها" (كاسيرر، 1944، ص. 337)، تلك الوحدة التي لا تلغي الاختلاف بل تؤلفه في نسيج متغير وحيوي للمعرفة الإنسانية.

يختتم هذا الفصل رحلته بنظرة تأملية نحو فلسفة رمزية مُحدّثة، مُعززة، وليس مجرد إعادة تدوير لأفكار قديمة. صحيح أن نقد فلسفة كاسيرر كشف عن بعض جوانبها المحدودة، كأنها سفينة شراعية تحاول الإبحار في محيطٍ رقميٍّ عاصف، إلا أن إرثه يبقى حياً نابضاً، شريطة أن نُعيد صياغة أدواته التحليلية، ونُضيف إليها لمسةً من العصر. فكرةٌ عبقريةٌ هي دمج الرمزية مع الظاهراتية، أو حتى مع السيميائيات الحديثة، كأننا نُزيّن قصرًا قديمًا بلمساتٍ معماريةٍ عصرية. بهذه الطريقة، نستطيع أن نفهم بشكلٍ أعمق كيف يتشكل الوعي البشري في هذا العصر الذي تُعيد فيه التكنولوجيا تعريف الرموز نفسها، وتُغيّر من قواعد اللعبة تماماً.

و أن الرمزية الكاسيررية، رغم ثرائها، تحتاج إلى إعادة صياغة في ضوء التحولات الأنثروبولوجية والتكنولوجية. فـ"بفهم هذا العالم الأنثروبولوجي الرمزي، يمكن فهم كيفية تأويل الإنسان للعالم بصفة عامة" (كاسيرر،2017،ص.267)، لكنّ هذا الفهم يجب أن يدمج النقد التفكيكي والعلوم الحديثة.وهنا تبرز مقولة كونت التأسيسية: "لكي تعرف نفسك، تعرف التاريخ" (Cassirer, 1944, p. 88)، والتي تُذكّرنا بأن الرموز ليست ثابتة، بل نتاج تفاعل ديناميكي بين الذات والجماعة عبر الزمن.وبالتالي؛ يمكن لفلسفة الرموز أن تظلّ جسرًا حيويًا بين الذات والعالم، لا أداةً جامدةً تُعيد إنتاج الهيمنة.

تخيلوا، مثلًا، التفاعل بين الرموز التقليدية، تلك التي ورثناها عبر الأجيال، والرموز الرقمية الحديثة، كأنها حوارٌ بين لغاتٍ مختلفة، كلٌّ منها يحمل معانيه الخاصة، لكنّها تتفاعل معًا لتُنتج معنىً جديدًا، أكثر ثراءً وأكثر تعقيداً. هذا التفاعل يُفتح آفاقًا جديدةً لفلسفةٍ رمزيةٍ متجددة، فلسفةٌ قادرةٌ على مواكبةِ – بل وحتى على استشراف – تعقيدات الواقع المعاصر، وتحدياته المتشابكة. فالمهم ليس فقط فهم الرموز، بل فهم كيف تتفاعل، وكيف تُعيد تشكيل نفسها باستمرار، وكيف تُسهم في بناء وعينا وتشكيل رؤيتنا للعالم. بهذه الروح، ننتقل إلى فصلٍ جديد، غنيٌّ بالتحديات والفرص على حدٍّ سواء.

الخاتمة

يُظهر البحث في فلسفة الأشكال الرمزية عند إرنست كاسيرر كيف يمكن للفكر الفلسفي أن يعيد بناء العلاقة بين الإنسان والعالم على أسس جديدة، تجعل من الرموز الوسيط الرئيسي لفهم الواقع وإنتاج المعرفة. فقد قادتنا هذه الدراسة إلى تصور مغاير للوعي، لا باعتباره مجرد انعكاس سلبي للواقع، بل كونه نتاجًا لعمليات رمزية معقدة تُعيد تشكيل التجربة الإنسانية عبر وسائط لغوية، فنية، دينية وعلمية. هذا التصور، وإن كان جذريًا في طابعه، يعكس محاولة جادة لتجاوز الطروحات التقليدية التي كانت تفصل بشكل صارم بين الفكر والواقع، أو تجعل من العقل أداة مباشرة لالتقاط الحقيقة.

هذا التحول في فهم العلاقة بين الفكر والعالم يضع الرموز في مركز العملية المعرفية، ويمنحها دورًا تأسيسيًا في بناء الوعي لا يقل أهمية عن التجربة الحسية أو العقلانية. إن كاسيرر، عبر هذا الطرح، لا يقترح مجرد تصوّر بديل، بل يؤسس لنقلة إبستمولوجية تضعنا أمام الحاجة إلى إعادة النظر في مفاهيم مثل الحقيقة، الموضوعية، والعقلانية. وهذا ما يفتح مجالًا واسعًا لإعادة تأويل الفلسفة من داخلها، بحيث لا تظل ساحة مجرّدة من المفاهيم، بل تصبح مشروعا ثقافيا وإنسانيا يقرأ الإنسان من خلال منتجاته الرمزية.

إن ما توصلنا إليه من نتائج يُبرز مدى أهمية المقاربة الرمزية في فهم كيفية تشكل المعنى لدى الإنسان، وكيف أن الرموز لا تُستخدم فقط للتعبير، بل تُكوّ ّن الإطار الذي من خلاله يُدرك الفرد العالم ويمنحه بنية. فكل شكل رمزي، سواء أكان لغةً أم فنًا أم دينًا أم علمًا، يقدّم نمطًا معينًا للتجربة، ويتيح إمكانات مختلفة لتأويل الواقع والتفاعل معه. وبهذا المعنى، لا يعود العالم الخارجي معطى مباشرًا، بل يصبح مشروطًا بالوسيط الرمزي الذي نصوغه ونؤوّله من خلاله.

إن هذا التعدد في الأطر الرمزية يكشف عن تعددية في أنماط الحقيقة والمعرفة، وهو ما يجعل من المشروع الكاسيرري مرنًا ومنفتحًا. غير أن هذا التعدد، وإن كان ثريًا، يفرض تساؤلات جديدة حول إمكانيات التواصل بين هذه العوالم الرمزية المختلفة، وحول ما إذا كان بالإمكان إقامة جسر معرفي أو تأويلي بينها. ففي عالم معاصر تتشابك فيه المرجعيات الثقافية واللغوية والدينية، تصبح الرموز أداة للمعنى، ولكن أيضًا أداة لسوء الفهم والتأويل المتعدد، وهو ما يستدعي التفكير في شروط إمكان الفهم المتبادل داخل عالم رمزي تعددي.

غير أن هذه النتائج لا تخلو من إشكالات نقدية، تستدعي التوقف عندها وتأملها بعمق. فمن جهة، يعيد ربط الوعي بالرموز صياغة العلاقة بين الذات والعالم، لكنه قد ينزلق نحو نوع من النسبية المفرطة التي تضع كل أنماط المعرفة في مستوى واحد، ما يطرح تساؤلات حول معايير الحقيقة، وخصوصًا في زمن يتسم بتعقيدات علمية وتكنولوجية لا يمكن اختزالها في الرموز التقليدية. ومن جهة أخرى، فإن الاعتماد المفرط على البعد الرمزي قد يُقصي الجوانب المادية والجسدية والبيولوجية في التجربة الإنسانية، وهي أبعاد لا تقل تأثيرًا عن الوسائط الرمزية.

هذا الطرح يجعلنا أمام مفارقة فلسفية دقيقة: من جهة، يسعى كاسيرر إلى تحرير المعرفة من اختزالها في معايير عقلانية صلبة؛ ومن جهة أخرى، يفتح بابًا قد يؤدي إلى تمييع الحدود بين المعرفي والتأويلي. إن النسبية الرمزية، في حال غياب معيار توافقي أو نقدي، قد تُضعف من قدرة الفكر على التفريق بين العلم والأسطورة، أو بين الفهم العلمي والفهم الغيبي. كما أن تجاهل الجوانب المادية للتجربة الإنسانية - مثل الجسد، الحواس، البيولوجيا - قد يجعل فلسفة الرموز أقرب إلى بناء ثقافي مغلق، غير قادر على احتضان تعقيدات الوجود الإنساني الكلي.

وإلى جانب ذلك، تبرز حدود فلسفة كاسيرر في عدم قدرتها على مواكبة التحولات المعاصرة في بنية الرموز نفسها، خاصة مع ظهور وسائط رقمية وتكنولوجيات جديدة أنتجت أشكالًا رمزية غير مسبوقة، يصعب تأطيرها ضمن التصنيفات الكلاسيكية التي وضعها في القرن العشرين. كذلك فإن موقفه الذي يتسم أحيانًا بنزعة شمولية قد لا يصمد أمام النقد التفكيكي أو ما بعد الحداثي، الذي يرفض كل نزعة نسقية أو تأويل مغلق للواقع الرمزي.

الخاتمة

لقد أصبحت الرموز اليوم أكثر تعقيدًا ومرونة من أي وقت مضى، لا تُنتَج داخل أطر لغوية أو ثقافية تقليدية فقط، بل تُولد لحظيًا في الفضاء الرقمي، وتتغير مع كل تفاعل، مما يضع التصور الكلاسيكي للأشكال الرمزية في مأزق تأويلي. من هنا، فإن أحد التحديات الكبرى أمام فلسفة كاسيرر هو قدرتها على تطوير أدوات تحليلية تُواكب هذه الطفرات التقنية والثقافية. أما على مستوى النقد الفلسفي، فإن التفكيك ما بعد الحداثي يُطالب بفك الارتباط بين الرمز والمركزية المعرفية، رافضًا أي بناء رمزي يدّعي الشمول أو الكلية. وهذا

ما يجعل من الضروري إعادة قراءة كاسيرر ليس بوصفه صاحب نسق مكتمل، بل كمفكر يفتح آفاقًا قابلة للتجديد والنقد.

رغم هذه الحدود، يبقى الطرح الرمزي الكاسيرري ذا قيمة كبيرة، لما يقدّمه من إمكانات لفهم تنوع التجربة الإنسانية ووحدة بنيتها الرمزية. وقد حاول هذا البحث، ضمن إمكانياته وحدوده، أن يرصد هذه المساهمة الفكرية من مختلف جوانبها، دون أن يدّعي الإحاطة الشاملة بكل أبعادها. وربما يكون من أبرز النقاط التي تحدّ من الدراسة، اقتصارها على القراءة الفلسفية النظرية دون الانفتاح على تطبيقات عملية أو تجريبية في مجالات مثل التربية، أو الإعلام، أو الدراسات الثقافية، حيث تتجلى الرموز بأشكال مختلفة ومتداخلة.

في هذا الإطار، تكتسب الأشكال الرمزية أهمية متجددة كأدوات للتفسير والممارسة في آنٍ معًا. إذ لم يعد من الممكن الفصل بين الفكر النظري والممارسات اليومية التي تنتج وتستهلك الرموز باستمرار. إن البحث في الرموز من منظور كاسيرر يمكن أن يقدّم أساسًا نظريًا غنيًا لبحوث تطبيقية معاصرة تتناول كيفية تشكيل الهويات، بناء الخطابات، أو حتى التحكم في الإدراك الجماعي ضمن فضاءات الإعلام والتعليم والسياسة. فالقيمة الحقيقية لفلسفة الرموز لا تتجلى فقط في عمقها المفاهيمي، بل في قابليتها لأن تكون أداة تحليل نقدي للواقع الحي.

وعليه، فإن هذا البحث يُمهد لمجموعة من الأسئلة التي يمكن أن تكون منطلقًا لأبحاث لاحقة، سواء من خلال دراسة أثر الأشكال الرمزية الجديدة في تشكل الوعي الرقمي، أو من خلال المقارنة بين فلسفة الرموز والاتجاهات الحديثة في علم النفس المعرفي، أو تحليل الفروقات الثقافية في بناء الرموز عبر المجتمعات. كما يمكن التوسع في تحليل التداخل بين الرموز والسلطة في الخطابات السياسية والدينية المعاصرة، وهو مجال خصب لم يُستثمر بعد بالشكل الكافي ضمن هذا الإطار الفلسفي.

تطرح هذه التوجهات آفاقًا متعددة لاستكمال المشروع الرمزي من زوايا معرفية متنوعة، يمكن من خلالها مساءلة مدى نجاعة التصور الكاسيرري في ضوء التطورات المعاصرة. ففهم الرموز في علاقتها بالسلطة، على سبيل المثال، يُعيد ربط الفلسفة بالواقع الاجتماعي والسياسي، ويوجهها نحو نقد البُنى المسيطرة التي تعيد إنتاج المعنى بما يخدم مصالح معينة. كما أن استحضار علم النفس المعرفي قد يمد الجسر بين الفلسفة والعلوم العصبية، مما يتيح نظرة أكثر تكاملًا للوعي، لا تقتصر على الرمز، بل تدمجه مع الإدراك البيولوجي والمعالجة الذهنية.

إن الرموز ليست فقط ما نستخدمه لفهم العالم، بل ما نعيش من خلاله العالم. ومن هنا، فإن التفكير في الرموز هو في جوهره تفكير في الإنسان نفسه، في إمكاناته وحدوده، في حريته وتاريخه، في وعيه وانفتاحه على المعنى. وفي هذا الأفق، تظل فلسفة كاسيرر دعوة مفتوحة إلى إعادة التفكير في الذات الإنسانية، لا كمجرّد عاكس للواقع، بل ككائن مبدع للمعنى، يعيش في عالم لم يُمنح له جاهزًا، بل صاغه ويصوغه باستمرار من خلال رموزه.

وهكذا، فإن كاسيرر لا يمنحنا فقط فلسفة للرموز، بل فلسفة للإنسان. إن إعادة الاعتبار للكائن الرمزي هو، في جوهره، إعادة تعريف للكينونة ذاتها بوصفها مشروعًا مفتوحًا على المعنى، وليس حالة مكتملة. وبينما تظل العلاقة بين الفكر والواقع سؤالًا فلسفيًا متجددًا، فإن كاسيرر يفتح لنا طريقًا ثالثًا يتجاوز الثنائية التقليدية، ويدعونا إلى أن نفهم أنفسنا كفاعلين رمزيين نشارك في صياغة العالم بقدر ما نتلقى معناه.

ملحق المصطلحات

1. الرمز (Symbole)

- **التعريف**: الرمز هو عنصر محسوس (كصورة، حركة، شكل أو لفظ) يُستخدم للدلالة على فكرة مجردة أو حالة ذهنية أو روحانية لا تُعبر عن ذاتها بشكل مباشر. يكشف الرمز عن محتوى داخلي من خلال وسيط خارجي، بحيث يُمكن لمجتمع معين أو ثقافة ما أن تتفق على دلالته دون أن تكون هذه الدلالة مطابقة لشكله. يظهر الرمز بشكل واسع في اللغة، الدين، الفنون، وحتى في التفكير العلمي. فالميزان مثلًا يرمز إلى العدالة، والحمامة إلى السلام. ويقوم الرمز بتكثيف المعنى في صورة، مما يمنحه قدرة على التواصل الكثيف بين الفكر والعاطفة والخيال.

2.رمزي (Symbolique)

- **التعريف**: تُستخدم هذه الصفة لوصف كل ما ينتمي إلى مجال الرموز أو يعتمد عليها في التعبير أو التواصل. عندما نصف شيئًا بأنه رمزي، فإننا نقرّ بأنه لا يملك معناه أو قيمته في ذاته، بل بارتباطه بشيء آخر يُمثله أو يُشير إليه. هذا ينطبق على الحركات الطقسية، الأعمال الفنية، الألوان، وحتى الكلمات. وتكتسب الأشياء رمزية في سياقها الثقافي أو النفسي أو الديني. على سبيل المثال، اللون الأسود قد يكون رمزًا للحزن في ثقافة، وللأناقة في ثقافة أخرى.

3. رمزية (Symbolique)

- **التعريف**: تشير الرمزية إلى نظام من الرموز التي تُستخدم لتمثيل مفاهيم مجردة، كما تشير إلى الدراسة المنهجية لهذه الرموز، سواء في الفكر أو في العقائد أو في الأساطير أو في التعبير الفني. وقد أصبح للرمزية طابع نظري، حيث بات يُطلق اسم "علم الرموز" أو "الرمزيات" على مجال معرفي مستقل يهتم بالكشف عن المعاني الخفية التي تتضمنها الإشارات والأشكال والطقوس. هذا المجال يشكّل همزة وصل بين الظاهر والباطن، بين الشكل والمضمون، وساهم في فهم البنية الذهنية والروحية للثقافات.

4. الرمزية او الارموزة (Allégorie)

- **التعريف**: الرمزية في هذا السياق تعني أسلوبًا تعبيريًا تُستخدم فيه سلسلة من الصور أو الشخصيات أو الوقائع لتمثيل أفكار أو قيم أخلاقية أو فلسفية. وفي الأرموزة، يرتبط كل عنصر من عناصر السرد أو التصوير بمعنى محدد يتجاوزه. تُستخدم الرمزية كثيرًا في القصص التربوية، والفن الديني، واللوحات التوضيحية، والأمثال. فهي وسيلة تعليمية وجمالية في آنٍ واحد، تساعد على التبليغ غير المباشر للقيم والمعاني، كما أنها تفتح باب التأويل المتعدد.

5. الأشكال الرمزية (Symbolic Forms)

- **التعريف**: عبارة عن أنظمةٌ ثقافيةٌ وذهنيةٌ يستخدمها الانسان لتنظيم تجربته وفهمه للعالم (كاللغة، الأسطورة، الدين، الفن، العلم) . بحيث تُستخدم كوسائطَ لتوليد الدلالة وتشكيل الواقع الإنساني، وتُمثِّل شروطًا ضروريةً لفهم الوجود البشري.

6. الحيوان الرمزي (Animal Symbolicum)

- **التعريف**: مفهومٌ يُعرِّف الإنسانَ بقدرته على خلق الرموز وفهمها واستخدامها للتعبير عن العالم ، مما يجعله لا يعيش في واقع مادي فقط، بل في واقع رمزي يصنعه بنفسه من خلال اللغة و الدين والفن والعلم ، بدلًا من التركيز على العقلانية المجردة .

7. الوظيفة الرمزية (Symbolic Function)

- **التعريف**: الآلية الديناميكية التي تُحوِّل التجربةَ الحسيةَ إلى أنظمةٍ دلاليةٍ قابلةٍ للتأويل، كتحويل الإحساس إلى فكرةٍ جماليةٍ أو معادلةٍ علمية.بمعنى . أي قدرة الإنسان على إعطاء معانٍ للأشياء من خلال رموز مثل الكلمات أو الصور أو الإشارات، وهي الوسيلة التي يعبّر بها عن أفكاره ويفهم بها العالم من حوله.

8. التعددية الرمزية (Symbolic Pluralism)

- **التعريف**: تنوعُ الأنظمة الرمزية واختلافُ منطقها الداخلي (كالعلم، الدين، الفن)، مما يُؤسِّسُ لرؤيةٍ تكامليةٍ ترفض هيمنةَ نظامٍ واحدٍ على الثقافة. أي أن الإنسان لا يفهم العالم من خلال طريقة واحدة فقط، بل من خلال أنظمة رمزية متعددة مثل اللغة، الدين، الفن، والعلم، وكل نظام منها يقدم رؤية خاصة للواقع.

9. الانزياح من الإبستمولوجيا إلى الأنثروبولوجيا

- **التعريف**: تحوُّلُ الفلسفة من دراسة شروط المعرفة المجردة إلى دراسة شروط الوجود الإنساني عبر تحليل الأنظمة الرمزية المُشكِّلة للثقافة.

10. الوساطة الرمزية (Symbolic Mediation)

- **التعريف**: عمليةُ إدراك الواقع عبر أنظمة رمزية (كاللغة) بدلًا من الإدراك المباشر، مما يجعل الرموزَ وسائطَ ضروريةً بين الذات والعالم. بمعني أن الإنسان لا يدرك العالم بشكل مباشر، بل من خلال رموز يصنعها مثل اللغة والصور والأساطير، وهذه الرموز تعمل كوسيط بينه وبين الواقع.

11. النقد الثقافي (Cultural Critique)

- **التعريف**: منهجٌ فلسفيٌّ يُحوِّلُ التركيزَ من نقد العقل إلى نقد الأنظمة الرمزية التي تُشكِّلُ الهويةَ والمعرفةَ في سياقٍ ثقافي.

12. الوعي الرمزي (Symbolic Consciousness)

- التعريف: قدرةُ الإنسان على تجاوز الحاضر عبر الرموز، وبناء تصوراتٍ عن الماضي والمستقبل، أو الخيال، مما يُمكِّنه من التفكير المجرد.

13. الأنظمة التوليدية (Generative Systems)

- **التعريف**: أنظمةٌ رمزيةٌ لا تنقل الواقعَ فحسب، بل تُنتجه وتُعيد تشكيله، كالقوانين العلمية التي تُنظِّم الظواهرَ الطبيعية.

14. الثقافة كنسيج رمزي (Culture as Symbolic Fabric)

- **التعريف**: رؤيةُ الثقافة كشبكةٍ معقدةٍ من الرموز المتفاعلة (اللغة، الدين، الفن...) التي تُحدِّد طبيعةَ الوجود الإنساني.

15. الديالكتيك بين الذات والموضوع

- **التعريف**: التفاعلُ الجدلي بين الفرد والعالم عبر الرموز، بدلًا من الثنائية التقليدية، مما يُعيد تشكيلَ العلاقة بينهما.

16. الأزمة الإنسانية (Human Crisis)

- **التعريف**: اغترابُ الإنسان المعاصر نتيجةَ تصارع الأنظمة الرمزية (كالعلمنة والأسطورة)، مما يُهدِّد وحدته الثقافية.

17. الرمز كشرط أنطولوجي (Symbol as Ontological Condition)

- **التعريف**: فكرةٌ تُؤكِّد أن الرموزَ ليست أدواتٍ معرفيةً فحسب، بل شروطًا لوجود الإنسان ذاته، كالهوية واللغة.

18. العقل الرمزي (Symbolic Mind)

- **التعريف**: هو القدرة الإنسانية على فهم الواقع وتمثيله من خلال أنظمة من الرموز، مثل اللغة والأسطورة والفن، بحيث لا يدرك العالم مباشرة بل عبر معانٍ يصوغها الإنسان.وبالتالي فالعقلُ البشريُّ القادرُ على إنتاج الرموز وتأويلها، مما يُميِّزه عن الكائنات الأخرى.

19. الإغتراب الرمزي (Symbolic Alienation)

- **التعريف**: حالةٌ يفقد فيها الإنسانُ توازنَه بسبب هيمنة نظامٍ رمزيٍّ واحدٍ (كالعلم) على حساب الأنظمة الأخرى (كالفن أو الدين).

20. الوعي الأسطوري (Mythical Consciousness)

- **التعريف**: نظامٌ رمزيٌّ يُفسِّر الواقعَ عبر السرديات الأسطورية والرموز المقدسة، ويعكس محاولة الإنسان البدائي فهمَ الظواهر الطبيعية والوجودية.

21. الإبداع الرمزي (Symbolic Creativity)

- **التعريف**:هو القدرة الإنسانية الفريدة على ابتكار رموزٍ جديدةٍ وتجديد الأنظمة الرمزية القائمة، مما يُسهِم في تطوُّر الثقافة وتنوُّعها.

22. الموضوعية الثقافية (Cultural Objectification)

- **التعريف**:هو عملية تحويل التجارب الذاتية إلى أنظمة رمزية موضوعية (كلغة أو فن)، تُشاركها الجماعة وتُعبِّر عن هويتها.

23. الرمزية الجمالية (Aesthetic Symbolism)

- **التعريف**: استخدام الرموز في الفن لتجسيد المشاعر والأفكار عبر الصور والإيحاءات، بدلًا من التمثيل الحرفي للواقع.

24. العوالم الرمزية (Symbolic Universes)

- **التعريف**: هي الأكوان الدلالية المتنوعة التي يبنيها الإنسان عبر الأنظمة الرمزية (كعالم العلم، عالم الدين، عالم الفن)، ولكلٍّ منها قوانينه الداخلية.

25. التحرر عبر الرموز (Liberation through Symbols)

- **التعريف**:هي قدرة الرموز على تحرير الإنسان من قيود الإدراك الحسي المباشر، وتمكينه من تجاوز الحدود البيولوجية عبر الخيال والمعرفة.

26. الوحدة في التنوع (Unity in Diversity)

- **التعريف**: هي فكرةٌ تُبرز أن التعدُّدية الرمزية (العلم، الدين، الفن...) لا تتعارض مع وحدة الوجود الإنساني، بل تُثريه عبر التفاعل الخلاق بين الأنظمة.

27. السرد الرمزي (Symbolic Narrative)

- **التعريف**: هو استخدام الرموز في بناء قصصٍ وحكاياتٍ تُعبِّر عن رؤية الجماعة للعالم (كالأساطير أو النصوص الدينية أو الأعمال الأدبية).

28. الانزياح الرمزي (Symbolic Displacement)

- **التعريف**: هي قدرة الرموز على الإحالة إلى مفاهيم مجردةٍ أو أحداثٍ غير حاضرةٍ زمانيًا أو مكانيًا (كالحديث عن الماضي أو التخطيط للمستقبل).

29. الأزمة الرمزية (Symbolic Crisis)

- **التعريف**:هو صراع الأنظمة الرمزية أو انهيارها، مما يؤدي إلى فقدان الإنسان لتوازنه الثقافي (كهيمنة العلم على حساب القيم الإنسانية.

30.كلمة "Leib"

ـ **التعريف**: هي كلمة ألمانية، وتُستخدم غالبًا بمعنى "الجسد"، لكنها تحمل دلالات خاصة في الفلسفة، خصوصًا عند الفيلسوف الألماني إدموند هوسرل وتلميذه موريس ميرلو-بونتي.

في الألمانية، هناك تمييز بين:

Leib: الجسد الحي أو الجسد المُعاش – أي الجسد الذي نعيشه من الداخل، نشعر به، ونتحرك به بشكل ذاتي. Körper: الجسد من منظور خارجي – أي الجسد كشيء مادي يمكن ملاحظته وقياسه كأي شيء فيزيائي آخر.

فالـ Leib هو الجسد المرتبط بالوعي، بالإحساس، بالذاتية، بينما الـ Körper هو الجسد الذي يراه الآخرون أو يدرسه العلم.

ملحق الشخصيات

1. إرنست كاسيرر (Ernst Cassirer)

يُعد كاسيرر من أبرز فلاسفة القرن العشرين، وهو ألماني الأصل **(1874–1945)**. ولد أرنست كاسيرر في برسلاو من ابن عائلة يهودية متمرسة في مجال التجارة، وأصبح كاسيرر الابن المدلل والمفضل بين أفراد أسرته. اشتهر كأبرز شارح لفلسفة كانط، ثم انتقل إلى برلين وعمره اثنا عشر عاماً وبدأ دراسته في المرحلة الثانوية، ثم واصل تعليمه ودرس القانون والأدب والفلسفة والفن والتاريخ. أصبح أستاذاً وفيلسوفاً في السويد، وهو ذو ذاكرة عجيبة واطلاع واسع في العلوم الرياضية والطبيعة والفن والتاريخ والفلسفة. من مؤلفاته: مشكلة المعرفة(1906) ، الجوهر والوظيفة(1910) ، فلسفة الأشكال الرمزية(1923) ، اللغة والأسطورة(1925) ، مقال عن الإنسان(1944) ، وغيرها. (عبد الهادي، 2025، ص902) أسّس فلسفة "الأشكال الرمزية"، حيث أعاد تعريف الإنسان بوصفه "حيواناً رمزياً". وقد انصبّ اهتمامه على دراسة الرموز بمختلف أشكالها (اللغة، الدين، الفن، العلم)، بوصفها أنساقاً تنظّم إدراك الإنسان للعالم وتشكّل ثقافته.

2. إيمانويل كانط (Immanuel Kant)

فيلسوف ألماني **(1724–1804)** يُعد من أعظم فلاسفة العصر الحديث. وُلد في كونيغسبرغ وتلقى تعليماً كلاسيكياً قبل التحاقه بالجامعة، حيث درس الفلسفة والعلوم. عمل في التدريس الجامعي لسنوات طويلة وتقلد مناصب أكاديمية متعددة. تميزت فلسفته بنزعة عقلانية صارمة، واهتم بشكل خاص بنظرية المعرفة، إذ رأى أن العقل هو المصدر الأساسي للمعرفة، رافضاً أن تكون العاطفة مصدراً معرفياً. كما سعى إلى بناء رؤية شاملة للعالم انطلاقاً من العلوم الدقيقة، وترك أثراً عميقاً في الفكر الغربي الحديث، خاصة من خلال تحليله لمفاهيم مثل "المعرفة"، و"العقل"، و"الأخلاق". (بدوي، ع. 1996، 269–270.) مثّل مرجعاً أساسياً لكاسيرر. أثّرت "المثالية النقدية" التي طوّرها كانط في بناء التصوّر الرمزي لدى كاسيرر، خاصة من حيث اعتبار العقل فاعلًا في تنظيم الخبرة. غير أن كاسيرر وسّع هذا الإطار ليشمل الرموز الثقافية كأدوات تنظّم الوعي والمعرفة.

3. مارتن هايدغر (Martin Heidegger)

هو فيلسوف ألماني **(1889–1976)** يُعد من أبرز مؤسسي الفلسفة الوجودية. نشأ في بيئة كاثوليكية، وبدأ بدراسة اللاهوت قبل أن يتحول إلى الفلسفة، ارتبط اسمه بمناظرة شهيرة مع كاسيرر سنة 1929. مثّلت هذه المواجهة خلافاً جوهرياً حول تفسير فلسفة كانط وطبيعة الإنسان، إذ دافع كاسيرر عن قدرة الرموز على تحرير الذات الإنسانية، بينما ركّز هايدغر على مفهوم "الوجود-في-العالم" بوصفه المدخل لفهم الكينونة. بالزمن والمعنى، في تأثر بأفكار برنتانو وهسرل. أسهمت دراسته للاهوت، واهتمامه (بدوي،ع. تشكيل رؤيته الفلسفية حول الوجود . 1984، ص. 597)

4. سوزان لانجر (Susanne Langer)

فيلسوفة أمريكية (1895–1985) وُلدت في مدينة نيويورك عام 1895 من أبوين ألمانيي الأصل، ودرست في (راد كليف) حيث حصلت على الماجستير ثم الدكتوراه، واستهلت حياتها العملية مُدرّسة في الجامعات الأمريكية. تأثرت بآراء كاسيرر، وقد تنوع إنتاجها الفلسفي بين الفلسفة والمنطق والجمال والفن واللغة. من مؤلفاتها: تطبيق الفلسفة(1930) ، أفق جديد في الفلسفة(1942) ، مقدمة في المنطق الرمزي(1953) ، الوجدان والصورة(1954) ، تأملات في الفن(1959) ، وغيرها. (عبد الهادي، 2025، ص. 902) تأثرت بأفكار كاسيرر في المجال الجمالي. طوّرت رؤية رمزية للفن، معتبرة الرموز غير

اللفظية وسائط للتعبير عن الشعور. وقد استندت في مقاربتها إلى مفهوم الشكل الرمزي الذي يشكّل بنية المعنى في التجربة الفنية.

5. كلود ليفي شتراوس (Claude Lévi-Strauss)

أنثروبولوجي فرنسي (1908–2009) ، نشأ في بيئة مثقفة مهتمة بالفنون، وبرز اهتمامه بالفكر الفلسفي والسياسي منذ سن مبكرة، ثم تحول إلى الأنثروبولوجيا بعد اطلاعه على أعمال رواد هذا العلم، ليُعرف لاحقاً كمؤسس البنيوية في العلوم الإنسانية، بفضل تأثيرات علاقته برومان جاكوبسون وأعماله الميدانية بين قبائل البرازيل (يتيم، 2004، ص. 21–23) . استفاد من فلسفة الأشكال الرمزية في تحليل الأساطير والبُنى الثقافية. وقد وظّف المنهج البنيوي في دراسة الرموز الاجتماعية، معتبراً أن العقل البشري يُنتج أنساقاً رمزية تحكم تصوّره للعالم.

6. لودفيغ فيتغنشتاين (Ludwig Wittgenstein)

فيلسوف نمساوي-بريطاني (1889–1951) ، وُلد لودفيج فتجنشتاين في فيينا بتاريخ 26 أبريل 1889، وتوفي في كامبريدج بتاريخ 29 أبريل 1951، ويُعد من أبرز فلاسفة القرن العشرين، إذ مرّ مشروعه الفلسفي بتحول عميق من التحليل المنطقي المجرد إلى معالجة وصفية للغة في استعمالاتها اليومية، كما يتجلى في كتابيه رسالة منطقية فلسفية (1922) وبحوث فلسفية (1953) (ماجين، م. 2016، ص. 17–19). يُعد من أهم فلاسفة اللغة في القرن العشرين. رغم اختلافه المنهجي عن كاسيرر، فقد اشتركا في اعتبار اللغة نظاماً رمزياً يُنظّم فهم العالم. طرح فيتغنشتاين مفهوم "ألعاب اللغة" بوصفها سياقات رمزية تُنتج المعنى وتُحدد حدود التفكير.

7. موريس ميرلو-بونتي (Maurice Merleau-Ponty)

فيلسوف فرنسي (1908–1961) برز في الفينومينولوجيا، وُلد في روشفور وتلقى تعليمه في مدرسة المعلمين العليا. درّس الفلسفة في عدد من الجامعات الفرنسية، منها السوربون والكوليج دو فرانس. تأثر بهوسرل لكنه خالفه في مسألة "الأنا المتعالي"، كما اختلف مع سارتر رغم صداقتهما. ساهم في الفينومينولوجيا وعلم النفس الفلسفي، وترك أثراً من خلال أعمال

مثل بنية السلوك وظاهريات الإدراك. (بدوي، ع. 1984، ص . 443)

8. أمبرتو إيكو (Umberto Eco)

فيلسوف وسيميائي، كاتب وروائي إيطالي (1932–2016) عُرف بإسهاماته النوعية في تطوير السيميائيات بوصفها أداة لتحليل التجربة الإنسانية في مختلف تجلياتها الرمزية والمعرفية، وذلك من خلال أعماله التي تجاوزت الجانب النظري إلى تأمل أعمق في بنية العلامات ودلالاتها.(إيكو، 2007، ص.6–7) . استلهم من كاسيرر في تحليله للرموز والأنظمة الدلالية. قدّم إيكو رؤية موسّعة للثقافة كنظام من العلامات، ودرس العلاقة بين الدال والمدلول في السياقات الثقافية والتأويلية، مؤكداً أن المعنى يتولّد من داخل الشبكة الرمزية للنصوص والظواهر.

الفهرس

الترقيم	العناوين	الصفحة
	شكر وعرفان	
	إهداء	
	قائمة المحتويات	
1	المقدمة	ا ب ج
2	**الفصل الأول: الإطار النظري لفلسفة الأشكال الرمزية**	4
3	المبحث الأول: مفهـوم الأشكال الرمزية	6
4	المطلب الأول: تعريف وتأسيس مفهوم الأشكال الرمزية عند إرنست كاسيرر	7
5	المطلب الثاني: دور الأشكال الرمزية في تشكيل الوعي والمعرفة الإنسانية	10
6	المطلب الثالث: التصنيف الأساسي للأشكال الرمزية اللغة الفن والدين	13
7	المبحث الثاني: اسس فلسفة كاسيرر	16
8	المطلب الأول: العلاقة بين الفكر والرمز	16
9	المطلب الثاني: الأشكال الرمزية كأداة لفهم العالم	20
10	المطلب الثالث: مقارنة بين كاسيرر وفلاسفة آخرين كانط هيدغر	21
11	**الفصل الثاني: الأشكال الرمزية وصياغة التجربة الإنسانية – منظور كاسيريري**	26
12	المبحث الأول: الأشكال الرمزية كأدوات توليد المعرفة	28
13	المطلب الأول: الرمزية في الحقلين العلمي والفلسفي	28
14	المطلب الثاني: تعددية الحقيقة الرمزية	30
15	المبحث الثاني: الديناميات الرمزية للثقافة الإنسانية	32
16	المطلب الأول: اللغة كأداة رمزية للتواصل والمعرفة	32
17	المطلب الثاني: الفن كتجسيد للحرية الرمزية	34
18	المطلب الثالث: الدين كنسق رمزي للمعنى المطلق	35
19	**الفصل الثالث: نقد فلسفة الأشكال الرمزية وحدودها في الفكر الإنساني**	38
20	المبحث الأول: حدود فعالية الأشكال الرمزية في التفسير الفلسفي	40
21	المطلب الأول: القدرة التفسيرية للرموز: بين الشمولية والقطيعة المعرفية	41
22	المطلب الثاني: التحديات الخارجية: تعدد الثقافات وتعقيد الواقع المعاصر	42
23	المبحث الثاني: النقد الفلسفي والمعرفي لفلسفة الأشكال الرمزية	43
24	المطلب الأول: نقد الشمولية: بين البنيوية وما بعد البنيوية	44
25	المطلب الثاني: محدودية الرموز في مواجهة العلوم والتقنية الحديثة	45

26	المبحث الثالث: نحو آفاق جديدة: إعادة بناء فلسفة الرموز وبدائلها	46
27	المطلب الأول: إمكانيات التطوير: التكامل مع النظريات المعاصرة	47
28	المطلب الثاني: البدائل الفلسفية: من التفسير إلى التفكيك والتجاوز	50
29	الخاتمة	63/61
30	ملحق المصطلحات	64/67
31	ملحق الشخصيات	62/63
32	قائمة المصادر والمراجع	70/72

المراجع العربية

كتب

1. كاسيرر، إ. (1961). مدخل إلى فلسفة الحضارة الإنسانية أو مقال في الإنسان (إ. عباس، مترجم). دار الأندلس. (العمل الأصلي نُشر عام 1944).

2. كاسيرر، إ. (1985). الدولة والأسطورة (أ. ح. محمود، مترجم). المكتبة العامة. (العمل الأصلي نُشر عام 1946).

3. كاسيرر، إ. (2009). اللغة والأسطورة (س. الغانمي، مترجم). هيئة أبو ظبي للثقافة والتراث. (العمل الأصلي نُشر عام 1925).

4. إيكو، أ .(2007) .العلامة: تحليل المفهوم وتاريخه (س. بنكراد، ترجمة). الدار البيضاء: المركز الثقافي العربي. (الأصل نُشر سنة 1973).

5. فيتجنشتاين، ل. (2007). تحقيقات فلسفية (ترجمة عبد الرزاق بنور). بيروت: المنظمة العربية للترجمة. (العمل الأصلي نُشر عام 1953).

6. الجزيري، م. م. (1999). نقد فلسفة التنوير عند هيردر. دار الحضارة للطباعة والنشر والتوزيع.

7. زيتاني، ج. (1993). رحلات داخل الفلسفة الغربية. دار المنتخب العربي.

8. ماجين، م .(2016) .فتجنشتاين والبحوث الفلسفية (رضا زيدان، ترجمة؛ سليمان أبو عيسى، مراجعة لغوية، الطبعة الثانية). القاهرة: مركز براهين.

9. مخوخ، ف. (2017). من نقد العقل إلى نقد الهيرمينوطيقا الرموز: بحث في فلسفة الثقافة (ط1). المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات.

10. يتيم، ع. ع .(2004) .دفاتر أنثروبولوجية: سير وحوارات. بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر.

- مقالات في مجلات:

11. خالدي، أ. (2020). دور اللغة والفن في فلسفة كاسيرر. مجلة الحوار والثقافة جامعة عبد الحميد بن باديس.

12. عبد الهادي، إ. م. م. (2023 أكتوبر). الشكل الرمزي بين إرنست كاسيرر وسوزان لانجر. مجلة كلية الآداب بقنا.

13. مخوخ، ف. (2018). رمزية العالم الإنساني من منظور إرنست كاسيرر: الرموز اللغوية نموذجًا. مجلة اللسانيات وتحليل الخطاب.

14. مخوخ، ف. (2019 يونيو). رمزية عالم الفن. مجلة أبوليوس.

15. بوادقجي، ن.، بدوي، ل.، والداية، ع. (2020). موقع اللغة والفن في فلسفة كاسيرر الجمالية. مجلة بحوث جامعة حلب، سلسلة الآداب والعلوم الإنسانية والتربوية.

16. عطار، أحمد. (2023). الأشكال الرمزية للذات في الأنثروبولوجيا الثقافية عند إرنست كاسيرر. مجلة أنثروبولوجيا الأديان، 9.

المراجع الأجنبية

- كتب:

1. Cassirer, E. (1925). La philosophie des formes symboliques: Tome 2, La pensée mythique (F.-A. Isambert, Trans.). Paris: Les Éditions de Minuit. (Original work published 1925).

2. Cassirer, E. (1944). An essay on man: An introduction to a philosophy of human culture. Yale University Press .

3. Cassirer, E. (1957). The Philosophy of Symbolic Forms, Volume Three: The Phenomenology of Knowledge (R. Manheim, Trans.). Yale University Press.

4. Cassirer, E. (1985). Philosophie des formes symboliques: Le langage. Éditions Minuit. (Original work published 1923) .

- كتب:

5. Janz, N. (1997). Cassirer **1945–1995**: Sciences et culture. Études de lettres .

6. Luft, S. (2005). Cassirer's philosophy of symbolic forms: Between reason and relativism; a critical appraisal. Marquette University Press .

- مقالات ومصادر إلكترونية:

7. Matherne, S. (2021*). Cassirer's philosophy of symbolic forms.* In E. N. Zalta (Ed.), The Stanford Encyclopedia of Philosophy, (Spring 2021 Edition). Stanford University.

- الموسوعات:

8. بدوي، ع. (1996). ملحق موسوعة الفلسفة (الجزء الأول). بيروت: دار الفارس للنشر والتوزيع.

9. لالاند، أ. (2001). موسوعة لالاند الفلسفية (مجلد1: A-G ، ط. 2). بيروت: منشورات عويدات.

-المعاجم:

10. صليبا، ج .(1982) .المعجم الفلسفي (الجزء الاول) . بيروت: دار الكتابي اللبناني.

11. صليبا، ج . (1982) . المعجم الفلسفي (الجزء الثاني). بيروت: دار الكتابي اللبناني.

12. سعيد، ج. د .(2004) . معجم المصطلحات والشواهد الفلسفية. تونس: دار الجنوب للنشر والتوزيع.